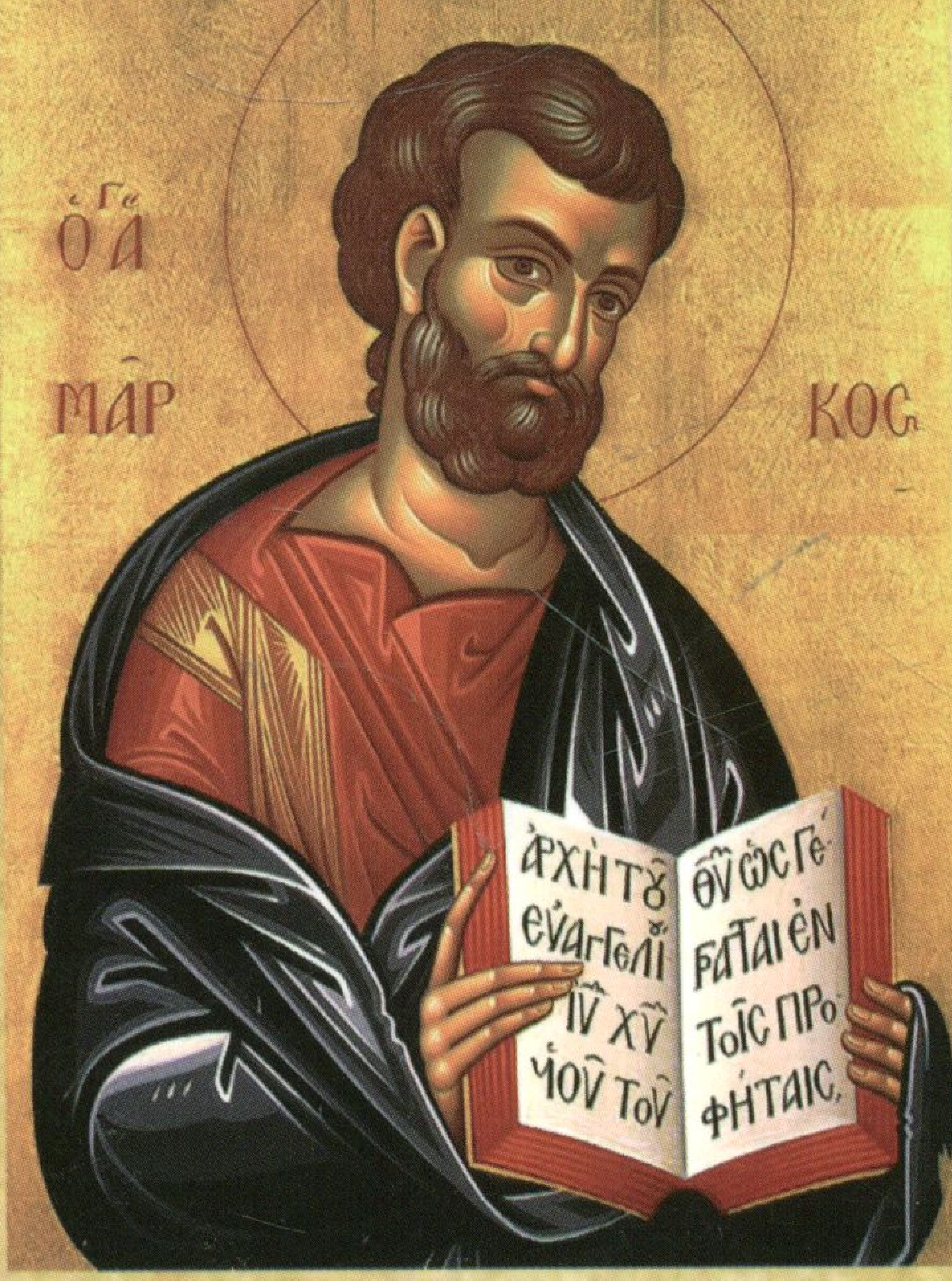
صفحات من تاريـخ مصر

٥٩

حضارة مصر القبطية

الذاكرة المفقودة



القديس مرقس صاحب أقدم الأناجيل والذي أقام أول كنيسة في العالم بالإسكندرية

منير غبور

أحمد عثمان

مكتبة مدبولى

حضارة مصر القبطية

الذاكرة المفقودة

الـــكـتـبـــــاب : (٥٩) صفحات من تاريخ مصر
حضارة مصر القبطية
الذاكرة المفقودة
تـألـيــــــــف : منير غبور .. أحمد عثمان
الطبعـــة الأولى عـــام : ٢٠١١
الناشــــــــــر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب — القاهرة
تليفون : ٢٥٧٥٦٤٢١ — فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكـــتروني : www.madboulybooks.com
Info@madboulybooks.com
رقـــم الإيـــداع : ٢٠١٠/١٧٦٥٤
الـترقـــيم الـــدولي : 977- 208- 855- x

(٥٩) صفحات من تاريخ مصر

حضارة مصر القبطية

الذاكرة المفقودة

منير غبور - أحمد عثمان

الناشر

مكتبة مدبولي

2011

مقدمة

عندما تمت كتابة التاريخ المصري منذ حوالي قرنين، لم يكن هذا التاريخ يحتوي على مكان لواحد من أهم العصور في بلادنا، وهو العصر القبطي. ربما كان سبب غياب هذا العصر من تاريخنا المكتوب، يرجع إلى اعتقاد الباحثين الخاطئ بأن المصريين لم يعتنقوا المسيحية قبل الحكم البيزنطي في القرن الرابع. وبينما يوافق الكثيرون منهم على أن القديس مرقص هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية، فهم ينظرون إلى هذه المدينة وكنيستها باعتبارها يونانية وليست مصرية.

الآن بعد مرور حوالي قرن ونصف القرن على بدء أعمال الكشف الأثري في بلادنا، أصبح من الضروري إعادة النظر في وجهة النظر هذه. وبينما تبين أن الإسكندرية التي وصل إليها مرقص كانت مدينة مصرية في حضارتها ومظهرها، فقد تم العثور على الآلاف من البقايا الأثرية في جميع أنحاء البلاد، تظهر بوضوح انتشار العقيدة المسيحية منذ القرن الثاني على الأقل. ومن المؤكد أن أقدم الكتابات المسيحية الموجودة الآن في جميع أنحاء العالم بما في ذلك العهد الجديد، وجدت في مصر، وليس في أي مكان آخر. وبما أننا نتحدث هنا عن التاريخ وليس عن الخلافات اللاهوتية، فمن المؤكد أن الجماعة المسيحية في مصر تكونت قبل أية جماعة مسيحية في أي بلد آخر. وبينما تبين البقايا الأثرية تنوع الجماعات المسيحية الأولى في مصر كما في بقية البلدان، فلم يتم تحديد قواعد ما يعتبر أورثوذكسياً قبل نهاية القرن الثاني.

حان الوقت حتى يكون لنا دور في كتابة تاريخ بلادنا، كما حان الوقت لإعادة فحص الأدلة على ضوء نتائج الكشوفات الأثرية الحديثة. عندئذ يمكننا استعادة ذاكرتنا المفقودة، والعودة إلى جذورنا الحضارية التي تمتد لخمسة آلاف عام خلال ثلاثة عصور تاريخية مهمة، الفرعونية والقبطية والإسلامية.

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يتحدث عن مرحلة منسية من تاريخ بلادنا، وهي الفترة المتعلقة بالحقبة القبطية من التاريخ المصري. كان اليونان القدماء يطلقون على أبناء الشعب المصري منذ أيام الفراعنة اسم "إيجيبتوس" حيث حل حرف الجيم اليوناني مكان حرف القاف، كما حل حرف التاء اليونانية مكان الطاء المصرية. ولا يزال الأوروبيون حتى وقتنا هذا، يستخدمون اسم الأقباط للدلالة على أبناء الشعب المصري، حيث يستخدم البريطانيون والأمريكيون كلمة "إيجيبشيانز"، كما يستخدم الفرنسيون كلمة "ايجيبسيان". ورغم ورود اسم مصر في القرآن الكريم، فقد استخدم المؤرخون العرب كلمة "قبط" للدلالة على الشعب المصري. إلا أن هذه الكلمة أصبحت الآن لا تطلق سوى على المسيحيين فقط من أبناء الشعب المصري.

انتهى حكم الفراعنة لمصر مع موت كليوباترا السابعة عام ٣٠ قبل الميلاد، بعد حوالي ثلاثة آلاف عام. ومنذ ذلك التاريخ فقدت مصر كيانها السياسي المستقل، وصارت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، يتم تسيير أمورها عن طريق حاكم يرسله الإمبراطور ويكون مقره بالإسكندرية. ورغم استمرار التقاليد والعادات الفرعونية كما هي تحت الحكم الروماني، فقد جرت تغييرات كبيرة خاصة في مجالات الدين واللغة والفنون. ففي ظل السيطرة الرومانية ماتت الديانات القديمة «الفرعونية» تدريجياً، خصوصاً مع تحول المصريين جميعهم إلى العقيدة المسيحية الجديدة التي انتشرت من الإسكندرية وحتى أسوان، وفي نفس الوقت - رغم استمرار اللغة اليونانية كلغة البلاد الرسمية - بدأت كتابة مصرية جديدة في الظهور، تتمثل في اللغة القبطية التي حلت تدريجياً مكان الكتابات المصرية الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية القديمة. وفي ذات الوقت أتاح انهيار النظام الديني الفرعوني الفرصة لظهور أنواع جديدة من الفن المصري.

منذ وصول الرومان إلى بلادنا، لم يعد أبناء الشعب المصري يشاركون في حكم بلادهم، كما حرموا من حق تكوين جيش يحميهم أو حتى الانضمام إلى وحدات

الجيش الروماني المرابطة في مصر. وظل الوضع كذلك بعد انتقال ولاية مصر إلى سلطة الدولة الرومانية الشرقية – البيزنطية – بعد سقوط روما في القرن الخامس للميلاد، كما استمر الوضع على نفس الحال بعد الفتوحات العربية والإسلامية، وحتى مجيء محمد علي باشا في القرن التاسع عشر. فقد ولدت مصر الحديثة مع وصول الحملة الفرنسية إلى أبو قير – شرقي الإسكندرية – عند نهاية القرن الثامن عشر، بقيادة نابليون بونابارت. ورغم أن الاحتلال الفرنسي لمصر لم يدم سوى ثلاث سنوات (١٧٩٨م – ١٨٠١م)، فقد ساعد الشعب المصري بعد ذلك على التخلص من المماليك الذين اضطهدوهم. وبعد هزيمة المماليك ورحيل الفرنسيين، جاء محمد علي من ألبانيا مع الجيش العثماني ليملأ الفراغ، وسرعان ما تمكن محمد علي من تكوين قاعدة مصرية محلية للسلطة، من زعماء الفلاحين والموظفين وتجار القاهرة والأغنياء. وعندما اختار الزعماء المصريين محمد علي ليكون حاكماً لهم، اضطر الباب العالي إلى قبوله والياً على مصر. وبعد حوالي ١٨ قرناً من فقدان الكيان السياسي المستقل، استطاع محمد علي انتزاع البلاد من الدولة العثمانية، لتعود دولة مستقلة ذات سيادة. كما قرر محمد علي تحديث مصر على الطريقة الغربية، وأعاد تنظيم اقتصادها الزراعي. ولأول مرة منذ نهاية حكم الفراعنة، جند محمد علي الصعايدة المصريين في جيشه الجديد، وعهد بتدريبهم إلى الكولونيل الفرنسي سيف، الذي عرف بعد ذلك باسم سليمان الفرنساوي، وتم تنظيم الوحدات العسكرية على أساس النظم الأوروبية الحديثة.

في النهاية وقعت الدول الأوروبية اتفاق لندن سنة ١٨٤٠م، الذي منح محمد علي باشا حكماً وراثياً لمصر، وأخرج البلاد من سلطة الدولة العثمانية، وإن ترك للباب العالي مظهراً صورياً من الولاية. كانت نتيجة انفصال مصر عن الإمبراطورية العثمانية هي استعادة المصريين لشعورهم القومي، وإدراكهم أنهم ينتمون إلى دولة

خاصة بهم ولم يعودوا جزءاً من كيان سياسي آخر. إلا أن الدولة المصرية الوليدة سرعان ما سقطت تحت الاحتلال البريطاني في ١٨٨٢م، ثم صارت محمية بريطانية بعد نشوب الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤م. ومع هذا - رغم وقوعها تحت الاحتلال البريطاني - استمرت العناصر القومية المصرية في النمو ديموقراطياً، فتم وضع دستور للبلاد في ١٩٢٣م، نتج عنه تكوين برلمان منتخب يمثل الشعب، كان بداية مسيرة الطريق الديموقراطي.

بعد سقوط مصر في يد الرومان، لم يعد هنا ملوك فراعنة يحكمون البلاد كما كان الوضع سابقاً، لكن الشعب المصري - القبطي - ظل يحتفظ بتراثه الثقافي القديم ولم يتأثر بالفكر الروماني أو العقائد اليونانية. فبعد دخول الرومان لمصر سنة ٣١ قبل الميلاد، صارت روما هي العاصمة السياسية للإمبراطورية الرومانية، بينما ظلت الإسكندرية هي العاصمة الثقافية والدينية فيها. ثم حدث تطور هام في مصر منذ منتصف القرن الميلادي الأول، حيث كان الشعب المصري هو أول شعب في العالم يعتنق - بأكمله - الديانة المسيحية الجديدة، بعد وصول القديس مرقص الرسول إلى الإسكندرية. كان الفراعنة هم الذين يدعمون الكهنة والمعابد بالمال والعطايا والهبات، وكانت المعابد وكهنتها وحدها معفية من دفع الضرائب. ومع سقوط النظام الفرعوني وحلول نظم رومانية جديدة لحكم البلاد، لم يعد هناك من يحمي المعابد القديمة، أو يهتم بحالة التدهور التي ألمت بها. وهكذا اختفت الديانات القديمة، لتحل مكانها الديانة المسيحية تدريجياً في كل أنحاء مصر.

المرحلة القبطية :

هذا العصر الجديد الذي بدأ في مصر بعد سقوط حكم الفراعنة، يمثل المرحلة القبطية من التاريخ المصري والتي انتهت بوصول عمرو بن العاص في ٦٤١ للميلاد، وبداية مرحلة التاريخ الإسلامي. فهذا هو عصر المصريين الأقباط دون

حكامهم السابقين من الفراعنة، أي أنه عصر القبط، ففي حالة الضياع التي عاشها المصريون بعد انهيار المؤسسة الدينية الفرعونية، وبحثهم عن الخلاص في عقيدة جديدة تتفق مع عقائدهم القديمة، وخصوصًا ما يتعلق منها بقيامة الأموات والحساب، كان المصريون هم أول الشعوب التي تقبلت العقيدة المسيحية الوليدة، من الإسكندرية في الشمال وحتى أسوان وبلاد النوبة في الجنوب. وهكذا صاحب العصر القبطي - عصر الشعب المصري بعد الفراعنة- انهياراً للديانات القديمة وانتشار للعقيدة المسيحية بين المصريين.

كما كانت الكنيسة التي أقامها القديس مرقص في الإسكندرية عند منتصف القرن الأول - وكان هو أول البطاركة بها - هي أول كنيسة مسيحية في العالم كله. وكان أسقف الإسكندرية هو الوحيد الذي حصل على لقب "بابا". ولم تظهر كنيسة روما نفسها إلا بعد حوالي عشرين عاماً من كنيسة الإسكندرية، حيث لم يتم تعيين خلف للقديس بطرس في روما قبل ستينيات القرن الأول. كما كانت مدرسة اللاهوت بالإسكندرية هي الوحيدة في العالم التي تدرس اللاهوت المسيحي، خلال النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني. وقد تلقى العديد من أساقفة الكنائس العالمية دراستهم في هذه المدرسة المصرية القبطية .

ومنذ انتهاء تبعية بلادنا للدولة العثمانية وعودة السيادة المصرية الحديثة في عصر محمد علي باشا، عاش المصريون - مسلمون ومسيحيون - في وفاق اجتماعي وتقارب في الثقافة والعادات الاجتماعية، ولم يحدث تفاضل بينهم بسبب العقيدة الدينية أو الأصل السلالي، حتى بالنسبة إلى أحفاد الجماعات التركية والمملوكية. فقد شارك الجميع جنباً إلى جنب في بناء الدولة والجيش، كما ساهموا في بناء الاقتصاد والثروة. وفي ثورة ١٩١٩م، خرج المصريون جميعاً - مسلمون ومسيحيون - لمواجهة العدو والمناداة بالاستقلال والدستور.

لهذا فإنني أرجو من قراء هذا الكتاب أن يفهم الجيل الحالي وكذلك الأجيال القادمة تاريخ الأقباط في مصر ، وأن يذكرنا هذا الكتاب بالتطورات الهامة في تاريخ بلادنا، وأن يساعد في تغيير الوضع السيئ الذي صار قائماً الآن، حيث ظهرت عناصر التفرقة بين أبناء الأمة وصار الأقباط المسيحيون مستبعدين من المناصب الحساسة وكذلك السيادية في الدولة، كما لو كانوا أجانب في وطنهم الأم لدرجة الشعور العام أنه لا يمكن الاطمئنان إلى ولائهم وإخلاصهم لبلادهم. فهذا الكتاب خطوة أولى – أرجو أن تتبعها خطوات – حتى نستعيد الذاكرة الحضارية لشعبنا المصري، وسوف تؤدي بكل تأكيد إلى عودة الوفاق بين أبناء شعبنا، كي نساهم سويا في بناء غد أفضل لأبنائنا ومستقبلنا.

وأن تدريس هذا الكتاب في المدارس والجامعات سيتيح فرصة افضل لكي تعرف الأجيال تاريخها الحقيقي بدلاً من مسح تاريخ الأقباط من ذاكرة التاريخ المصري ، وهذا في حد ذاته ظلم للتاريخ ويستتبعه خلق عدم الوفاق بين ابناء الأمة .

منير غبور

الذاكرة المفقودة

رغم أن مصر تمتلك تاريخاً طويلاً إلا أن ذاكرتها أصبحت قصيرة هذه الأيام. إذ يبدأ التاريخ المسجل في مصر منذ أن اخترع المصريون القدماء فن الكتابة الهيروغليفية. وحتى عهد قريب كان الاعتقاد السائد يذهب إلى أن السومريون الذين سكنوا جنوب العراق، سبقوا المصريين بقرن من الزمان في اختراع الكتابة، نحو ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. وفي ديسمبر ١٩٩٩م أعلن جانتر دراير - مدير معهد الآثار الألماني بالقاهرة - أنه عثر على مجموعة من الكتابات المنقوشة على قطع من العاج الصغيرة، يرجع تاريخها إلى حوالي ثلاثة آلاف و ٣٠٠ سنة قبل الميلاد، أي قبل الكتابات السومرية بأكثر من مائة عام على الأقل. وجدت هذه الكتابات في مقبرة الملك عقرب الأول في أبيدوس بصعيد مصر.

وبالرغم من تاريخ مصر الطويل، يبدو أن مصر المعاصرة قد فقدت ذاكرتها، ومن الغريب أن المصريين في عصرنا الحديث لا يعلمون شيئاً عن تاريخهم القديم. فالطلاب المصريون لا يتعلمون سوى القليل من التاريخ القديم لبلادهم، أقل بكثير مما يتعلمه الطالب في مدارس الدول الغربية. فطلاب مصر لا يعرفون شيئاً عن الكتابات الهيروغليفية أو القبطية لآداب بلادهم الغنية قبل استخدام الكتابة العربية منذ القرن الميلادي السابع. وبالنسبة إلى غالبية المصريين، تعتبر الآثار القديمة والمتاحف التي تحتويها بمثابة مزارات للسياح فقط، وليست لهم. وأذكر أن الكاتب يوسف السباعي - الذي أصبح وزيراً للثقافة أيام الرئيس جمال عبد الناصر - كتب مرة في مجلة آخر ساعة يعتذر عن عدم زيارته للشاعر السوري نزار قباني بفندق هيلتون النيل، قائلاً إنه لم يتمكن من زيارة المتحف المصري القريب منه، نظراً إلى ضيق وقته.

عندما فقدت مصر ذاكرتها التاريخية، لم تعد البلاد قادرة على إدراك هويتها الحقيقية. فمن نحن؟ هل نحن سلالة الفراعنة الذين حكموا مصر القديمة؟ هل نحن من أبناء المصريين القدماء من الأقباط؟ هل نحن عرب أم مسلمون أو شيء آخر؟

وترجع أسباب فقدان الذاكرة المصرية إلى سببين رئيسيين: السبب الأول هو تحطيم مكتبة الإسكندرية في ٣٩١ للميلاد وإحراق حوالي نصف مليون مخطوط بها، مما أدى إلى ضياع الذاكرة المكتوبة لمصر الفرعونية. أما السبب الثاني فهو فقدان مصر لكيانها السياسي المستقل وخضوعها لكيانات سياسية أجنبية حوالي ألفي عام: الرومان، البيزنطيون، العرب، الفاطميون، العباسيون، الأيوبيون، المماليك، والعثمانيون ثم الاحتلال الفرنسي والبريطاني.

في اعتقادي أن ضياع الذاكرة التاريخية لمصر هو السبب الرئيسي لعدم قدرة مصر على التعلم من ماضيها حتى تعيد بناء كيانها، وتنضم إلى العالم الحديث. فحتى يمكن للبلاد أن تدرك هويتها الحقيقية، لا بد لها أولاً من استعادة ذاكرتها المفقودة؛ فالنهضة المصرية - رينيسانس - تتطلب العودة إلى الجذور الثقافية، قبل حوالي خمسة آلاف عام، وبينما كانت النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر تمثل ارتباط أوروبا بتاريخها الكلاسيكي القديم، فإن النهضة المصرية تتطلب الارتباط بتاريخها القديم.

ولدت مصر الحديثة مع وصول الحملة الفرنسية إلى أبو قير - شرقي الإسكندرية - عند نهاية القرن الثامن عشر، بقيادة نابليون بونابارت. ورغم أن الاحتلال الفرنسي لمصر لم يدم سوى ثلاث سنوات فقط (١٧٩٨ - ١٨٠١)، فقد ساعد الشعب المصري بعد ذلك على التخلص من المماليك الذين اضطهدوهم. ومع الأسلحة والذخائر التي أتى بها جيش نابليون، أحضر بونابارت معه آلة للطباعة العربية وأكثر من ١٦٠ عالماً لتسجيل تاريخ مصر القديم، وكانت نتيجة دراسات

هؤلاء العلماء الفرنسيين كتاب "في وصف مصر" الذي صدر بالفرنسية عام ١٨٠١م في عشرين مجلداً وأيقظ العالم على روعة حضارة أجدادنا.

وبعد هزيمة المماليك وطرد الفرنسيين، جاء محمد علي من ألبانيا مع الجيش العثماني ليملأ الفراغ، وسرعان ما تمكن محمد علي من تكوين قاعدة مصرية محلية للسلطة، من زعماء الفلاحين والموظفين وتجار القاهرة الأغنياء. وعندما اختار الزعماء المصريين محمد علي ليكون حاكماً لهم، اضطر الباب العالي قبوله والياً على مصر. وبعد حوالي ١٨ قرناً من فقدان الكيان السياسي المستقل، استطاع محمد علي انتزاع البلاد من الدولة العثمانية، لتعود دولة ذات سيادة مستقلة. كما قرر محمد علي تحديث مصر على الطريقة الغربية، وأعاد تنظيم اقتصادها الزراعي. وللمرة الأولى منذ نهاية حكم الفراعنة، جند محمد علي الصعايدة المصريين في جيشه الجديد، وعهد بتدريبهم إلى الكولونيل الفرنسي سيف الذي عرف باسم سليمان الفرنساوي، وتم تنظيم الوحدات العسكرية على أساس النظم الأوروبية الحديثة. وساعد تنظيم التجارة والجيش على تحديث مشروعات مختلفة، مثل المؤسسات التعليمية والمستشفيات وإنشاء الطرق وحفر الترع، إلى جانب إنشاء المصانع التي تمد الجيش بالملابس والذخيرة، وكذلك بناء السفن.

وكما استعان محمد علي بالفلاحين المصريين في بناء جيشه الجديد، فقد استخدمهم كذلك في إعادة بناء اقتصاد البلاد وإدارتها؛ لهذا احتاج الوالي مصريين متعلمين لإدارة دولته وبناء النظام الصناعي الحديث. في تلك الحقبة من القرن التاسع عشر، كان الأزهر هو المؤسسة التعليمية الوحيدة في مصر، يقوم بتدريس اللغة العربية والمواد الشرعية؛ فأرسل محمد علي بعض خريجي الأزهر إلى أوروبا – وخصوصاً فرنسا – لتلقي العلوم الحديثة، ثم أقام نظاماً جديداً للتعليم في مصر لتدريس المواد العلمية الحديثة للشباب. نتج عن كل هذا ظهور جيل جديد من المصريين المتعلمين، الذين عملوا بعد ذلك على تجديد الثقافة المصرية وتحديد الهوية

المصرية. كان رفاعة رافع الطهطاوي واحداً من هؤلاء الرجال، وأصبح من أهم قادة الحركة التعليمية خلال المرحلة الأولى للتحديث، حيث تولى ترجمة العديد من الكتب الأوروبية. وساعدت أعمال الطهطاوي الأجيال التالية من المصريين في التعرف إلى الفكر الغربي وإدراك مفهوم الوطنية المصرية.

في النهاية وقعت الدول الأوروبية اتفاق لندن سنة ١٨٤٠ الذي منح محمد علي باشا حكماً وراثياً لمصر، وأخرج البلاد من سلطان الدولة العثمانية، وإن ترك للباب العالي مظهراً صورياً من الولاية. كانت نتيجة انفصال مصر عن الإمبراطورية العثمانية استعادة المصريين لشعورهم القومي وإدراكهم أنهم ينتمون إلى دولة خاصة بهم ولم يعودوا جزءاً من كيان سياسي آخر. إلا أن الدولة المصرية الوليدة سرعان ما سقطت تحت الاحتلال العسكري البريطاني في ١٨٨٢، ثم صارت محمية بريطانية على أثر نشوب الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤. ومع هذا - رغم وقوعها تحت الاحتلال البريطاني - استمرت عناصر القومية المصرية في النمو ونحت نحواً ديموقراطياً فتم وضع دستور للبلاد نتج عنه تكوين برلمان منتخب يمثل الشعب كان بداية مسيرة الطريق الديموقراطي.

وهكذا نرى أن الحركة القومية الجديدة بدأت تنمو مع بداية القرن العشرين، وراحت تنظر إلى تاريخ مصر القديم منذ العصر الفرعوني. وفي تلك الفترة، رفض الباحث أحمد لطفي السيد - الذي صار مديراً لأول جامعة مصرية في ١٩٢٥ - اعتبار مصر جزءاً من العالم العربي أو العالم الإسلامي. وأصر لطفي السيد على اعتبار مصر أمة مستقلة يعود تاريخها إلى آلاف السنين منذ العصر الفرعوني. إلا أن هذه المحاولة لاستعادة الذاكرة التاريخية للمصريين لم تدم طويلاً، وجاءت نهايتها نتيجة لتطور الوضع السياسي في منطقة الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية. فقد تغير الموقف بعد صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٧م بتقسيم أرض فلسطين إلى دولتين، دولة عربية ودولة يهودية، عند ذلك رفضت الجامعة

العربية - التي كانت قد تكونت بعد الحرب - قرار التقسيم، وقررت إرسال جيوشها النظامية إلى فلسطين بهدف منع إقامة دولة إسرائيل.

هزمت جيوش الدول العربية السبع في حرب ١٩٤٨م، واضطرت الحكومات إلى القبول بوقف القتال والهدنة. وكان لهذه الهزيمة في حرب فلسطين أثراً كبيراً على المسيرة السياسية في مصر، بل وفي كل بلدان الشرق الأوسط. قامت حركة الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بقيادة البكباشي جمال عبد الناصر. ورغم أن جمال عبد الناصر كان يعتمد في البداية على سياسة قومية مصرية، فإنه سرعان ما غير سياسته اعتماداً علي فكرة القومية العربية. وتعتمد فكرة القومية العربية على النتاج الحضاري المشترك، وعلى التاريخ المشترك للبلدان العربية إلى جانب وحدة اللغة والثقافة. ونتيجة لهذه القومية المشتركة، جاء شعار الوحدة العربية للمطالبة بتكوين كيان سياسي عربي واحد، يمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي. وفي سنة ١٩٥٨م قام عبد الناصر بتغيير اسم "مصر" التاريخي، واستبداله باسم "الجمهورية العربية المتحدة"، عندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا. وهكذا اختفى اسم مصر - الوحيد من بين البلدان الذي ورد في كل من القرآن والتوراة والإنجيل - من القاموس السياسي، إلى أن أعاده الرئيس السادات في ١٩٧١م.

أدى صعود فكرة القومية العربية في الفكر السياسي بعد ثورة يوليو إلى تغيير مسيرة مصر الحديثة. فبدلاً من استمرار العمل من أجل استعادة الهوية المصرية المفقودة، أحدثت سياسة عبد الناصر المعتمدة على فكرة الوحدة العربية ارتباكاً، خصوصاً بعد أن واجهها فيصل ملك السعودية بفكرة الوحدة الإسلامية. وهكذا واجهت فكرة البعث القومي المصري نهاية مفاجئة.

عندما توقف الباحثون المصريون عن محاولة العثور على جذور التاريخ الماضي لبلادهم، صارت معرفتهم بهذا التاريخ تعتمد كلية على المصادر الأوروبية. صحيح

أن الأمم التي تتحدث العربية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لديها مصالح سياسية واقتصادية مشتركة، كما أنها تشترك في العديد من العناصر الثقافية. صحيح كذلك أن هذه الشعوب، لو أنها تعاونت سوياً لتكوين نوع من الجبهات الموحدة تشبه الوحدة الأوروبية، فسوف يكون لديها فرصة أفضل لتحسين مصالح كل بلد على حدة. ومع هذا فإن هذه الشعوب - تاريخياً - لا تمثل أمة عربية واحدة. وبينما كانت أول أمة عربية عرفناها في التاريخ هي تلك التي كونها النبي محمد بعد هجرته إلى المدينة المنورة في بداية القرن السابع للميلاد، فإن جذور الأمة المصرية تعود إلى حوالي أربعة آلاف سنة قبل هذا التاريخ. وعندما اعتبر الباحثون المصريون أنفسهم عرباً، أصبح عليهم النظر إلى التاريخ المصري القديم باعتباره جزءاً من الجاهلية قبل الإسلام لا تستحق دراسته.

تولى الباحثون من ثلاث دول أوروبية - فرنسا وإنجلترا وألمانيا - مهمة كتابة تاريخ العالم، بما في ذلك مصر، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. في ذلك الوقت كان التاريخ القديم يعتبر إلى حد كبير، جزءاً تابعاً للأدب الكلاسيكي والدراسات التوراتية، وعلى هذا صار من اختصاص الباحثين الكلاسيكيين المتخصصين في الدراسات اليونانية والرومانية، وفي خلال القرنين ١٨ و ١٩ تولى هؤلاء الباحثون، ليس فقط تحديد تتابع الأحداث (chronology) في التاريخ القديم، بل إنهم هم الذين تولوا تحديد برامج التاريخ التي تدرس في الجامعات وكتابة موسوعات الإنسيكلوبيديا.

نقطتان رئيسيتان وردتا في تحديد التاريخ المصري القديم - كما سجله الكلاسيكيون - تسببا في عدم فهم المصريين لتاريخهم القديم بشكل صحيح: إصرارهم على أن مصر لم تعتنق المسيحية قبل فترة الحكم البيزنطي، وادعاؤهم بأن مدينة الإسكندرية لم تكن مصرية بل يونانية. نتج عن هذا غياب الدراسات القبطية عن المدارس والمعاهد المصرية، كما رفض المصريون ثقافة الإسكندرية - قمة ما

وصلت إليه الحضارة المصرية الفرعونية - باعتبارها ثقافة أجنبية دخيلة. ولما كانت النظم الدراسية المصرية الحديثة تتبع النظم الأوروبية التي تشكلت خلال عصر التنوير في القرن التاسع عشر، وافق الباحثون المصريون على كل ما تعلموه عن أساتذتهم الغربيين دون نقاش، حتى فيما يتعلق بتاريخ بلادهم، ولأن علم المصريات لم يكن قد تطور بعد في تلك الحقبة، حيث صار الآن فرعاً خاصاً من دراسة التاريخ، فقد تولى الكلاسيكيون كتابة تاريخ الفراعنة.

الآن بعد أن أصبحت دراسة التاريخ تعتمد على وسائل التكنولوجيا والعلم الحديث في دراسة أحداث الماضي، وعندما استطاعت مجارف رجال الآثار الكشف عن الآلاف من البقايا والكتابات القديمة، حان الوقت كي نعيد فحص تاريخنا القديم لنضعه على أرض أكثر صلابة. وفي اعتقادي أن دراسة تاريخنا القديم هى الخطوة الأولى لاستعادة ذاكرتنا المفقودة، وإدراك هويتنا الحقيقية وفتح الطريق للبحث الحضاري الذي طال انتظاره.

تقسيم خاطئ

يقسم التاريخ المصري عادة إلى ثلاثة أقسام: العصر الفرعوني (من حوالي ٣١٥٠ إلى ٣٣٢ قبل الميلاد)، العصر اليوناني الروماني (من ٣٣٢ قبل الميلاد إلى ٦٤١ ميلادية)، العصر الإسلامي (من ٦٤١ وحتى وقتنا هذا). وكما يتبين لنا، فلا ذكر للعصر القبطي في هذا التقسيم للتاريخ المصري. ورغم أن بعض الباحثين وبعض المتاحف قد بدؤوا أخيراً يتحدثون عن العصر القبطي، فإن هذا العصر عندهم ليس له مكان في تتابع أحداث التاريخ المصري الذي يدرس في المعاهد والجامعات، أو فيما تنشر الموسوعات العالمية. وحتى بالنسبة إلى أولئك الباحثين الذين يتحدثون عن العصر القبطي، فلا يزال هذا العصر بدون حدود تاريخية محددة، بل هو متداخل مع فترتي الحكم الروماني والبيزنطي. ومن أهم أسباب اختفاء العصر القبطي من التاريخ المصري، هو أن الباحثين الكلاسيكيين اعتبروا القسم الثاني من التاريخ المصري يمثل تاريخ حضارة أجنبية وليست مصرية، حضارة يونانية ورومانية.

في هذا الكتاب سأحاول توضيح سبب هذا الوضع الشاذ وأبين أن ما يسمى الآن بالعصر الروماني للتاريخ المصري (٣٠ ق.م - ٦٤١ م)، هو في الحقيقة يمثل العصر القبطي من تاريخ مصر، وسوف أقدم تقسيماً جديداً لتاريخ بلادنا يحل مكان التقسيم القديم، ينقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام: فرعوني (من حوالي ٣١٥٠ إلى ٣٠ق.م)، قبطي (٣٠ق.م - ٦٤١م) وإسلامي (٦٤١ إلى الوقت الحاضر). وأنا أستخدم كلمة "قبطي" هنا كما كانت الكلمة تستخدم في العصور القديمة، ليس للدلالة على المسيحي المصري، وإنما للدلالة على "المصري" بشكل عام. وعلى هذا

يمثل العصر القبطي عندي الفترة ما بين نهاية الحكم الفرعوني في ٣٠ ق. م.، وحتى وصول العرب المسلمين في ٦٤١ م.

أستخدم كلمة "قبطي" هنا بمعنى "مصري" كما كانت تستخدم في الأزمنة القديمة، حيث صارت لها دلالة دينية في وقتنا الحاضر بمعنى "مسيحي مصري". فالأقباط هم بشكل عام أحفاد المصريين القدماء، مثلهم في هذا مثل الغالبية العظمى من المصريين الذين اعتنقوا الإسلام. فقد استخدم الكتاب اليونان القدامى كلمة قبطي وأقباط للتعبير عن سكان مصر وشعبها. وكلمة Copt الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة اليونانية Aiguptios وهي شكل الصفة للاسم Aiguptia أي مصر. ومن المفهوم أن Eiguptia هي بدورها مأخوذة عن اسم مدينة منف في مصر القديمة ها-كا-بتاح أي مقر روح بتاح، الكلمة التي استخدمها اليونانيون للدلالة على مصر كلها. ومن الناحية الأخرى، بينما استخدم العهد القديم من الكتاب المقدس الكلمة العبرية "مصرايم" للدلالة على بلادنا، استخدم القرآن كلمة مصر. ومع هذا فقد أطلق المؤرخون العرب الأوائل على المصريين كلمة "قبط"، وهي الكلمة التي صارت الآن ذات دلالة دينية وليست قومية.

وبالنسبة إلى التقسيم القائم حالياً للتاريخ المصري، ليس هناك خلاف فيما يتعلق بالعصر الإسلامي بينما يوجد الخلاف حول القسمين الآخرين. إذ يتضمن القسم المسمى بالعصر اليوناني الروماني ثلاثة أجزاء: عهد البطالمة وعهد الرومان وعهد البيزنطيين. ومن الواضح أن إطلاق اسم العصر اليوناني الروماني على هذه الفترة من التاريخ المصري يقوم على أساس عقائدي وليس على أساس من التاريخ، فكيف لأمة أن تحدد تاريخها بناء على أسماء الأجانب المحتلين لأرضها، وإلا لصار لدينا عصر هكسوسي وعصر ليبي وعصر فارسي وعصر لكل محتل سيطر بقواته على بلادنا. ونلاحظ هنا أن العصر الإسلامي لم يأخذ اسمه بسبب احتلال العرب لمصر، وإنما بسبب اعتناق أبناء الشعب المصري للإسلام في تلك الحقبة.

كان الكلاسيكيون الأوروبيون هم الذين قاموا بتحديد عصور التاريخ المصري خلال القرن التاسع عشر، ليس على أساس التطورات الداخلية والتغيرات التي حدثت في مجالات الثقافة والإدارة، بل على أساس تصورهم الخاص لطبيعة التاريخ المصري القديم. اعتقدوا أنه خلال تلك الفترة عندما سقطت البلاد تحت حكم أجنبي - للمقدونيين والرومان ثم البيزنطيين - اختفت عناصر الحضارة المصرية القديمة، وحلت مكانها عناصر جديدة لحضارة هيلينية يونانية، وهم يرون أن الحضارة المصرية القديمة انتهت من الوجود مع وصول الإسكندر الأكبر إلى أرض مصر في ٣٣٢ قبل الميلاد، وفي ما يدعون أنه في تلك اللحظة نفسها حلت مكانها حضارة يونانية هيلينية استمرت - في رأيهم - حتى وصول العرب في ٦٤١ للميلاد.

"إذا ما سألنا لماذا جمع بطليموس الأول وخلفاؤه العديد من الباحثين والشعراء في بلاطهم، فلا تكفي الإشارة إلى الدوافع المعروفة جيداً لدى الملوك الآخرين الذين راعوا الفنون والعلوم، مثل الرغبة في تعظيم مركزهم في البلاط على سبيل المثال، لا بد لنا أيضاً الأخذ في الاعتبار أنه لم يكن ممكناً إظهار تفوق الثقافة اليونانية بطريقة أفضل، إلا عن طريق (العمل على) ازدهار الفنون والعلوم (اليونانية) في الإسكندرية، حتى يمكن تبرير الحكم المقدوني اليوناني على مصر. هذا الازدهار يثبت كذلك أن الثقافة اليونانية كانت لا تزال حية وفي حالة جيدة، بينما كانت الثقافة المصرية - التي لطالما أعجب بها اليونان المتعلمون كثيراً - قد ماتت منذ وقت طويل. فلم يهتم اليونان كثيراً بالمصريين الذين عاصروهم. من هذا المنظور يكون تأسيس ومساعدة المتحف السكندري تحقيقاً لسياسة ثقافية بمعنى الكلمة".(1)

إلا أن هذا الادعاء من جانب رودولف بلوم يتعارض تماماً مع الأدلة الأثرية الحديثة، والتي تؤكد أن الثقافة الفرعونية المصرية استمرت خلال فترة حكم البطالمة كما سنبين فيما بعد.

(1) Kallimachos by Rudolf Blum, The Alexandrian Library and the Origins of Bibliography, tr. From German by Hns H. Wellisch, University of Wisconsin Press, 1991, p. 98.

التاريخ المصري الحالي - كما هو قائم الآن - ينهي العصر الفرعوني مع وصول الإسكندر الأكبر وسقوط الأسرة ٣١ حوالي ٣٣٢ قبل الميلاد، أي أنه يضع حكم البطالمة خارج العصر الفرعوني، فما الأسباب التي بررت للكلاسيكيين إخراج البطالمة خلفاء الإسكندر من العصر الفرعوني؟ فحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت فترة حكم الملوك البطالمة تعتبر جزءاً من التاريخ المصري القديم، الذي لم ينته إلا بعد سقوط البطالمة سنة ٣٠ قبل الميلاد، عندما خضعت مصر لسيطرة الرومان. ما الذي جعل مؤرخي القرن العشرين يغيرون هذا الوضع ويعتبرون البطالمة حكاماً أجانب مثلهم في ذلك مثل الرومان؟

عندما نسأل: لماذا تم إبعاد الأسرة البطلمية من العصر الفرعوني، يكون الجواب عادة: لأن البطالمة كانوا أجانب وليسوا مصريين، إلا أن هذه الإجابة في الواقع مضللة، ذلك أن البطالمة لم يحكموا مصر كحكام أجانب نيابة عن مقدونيا، بل كانوا حكاماً محليين، تماماً مثل الأسرة المالكة حالياً في بريطانيا التي هي من أصل ألماني، وكما كانت أسرة محمد علي باشا - التي حكمت مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين - من أصل ألباني، بل إن هناك العديد من الأسرات التي تضمنها العصر الفرعوني كانت كلها من أصل أجنبي.

الأسرات ١٥ إلى ١٧ (١٦٥٠-١٥٥٠ ق. م.) كانت من الحكام الهكسوس ذوي الأصول الآسيوية. الأسرات ٢٢-٢٣ (٩٤٥-٧١٥ ق. م.) كانت من أصل ليبي. الأسرة ٢٥ (٧٤٧-٦٥٦ ق. م.) كانت نوبية الأصل. الأسرة ٣١، وهي التي اعتبروها آخر أسرات العصر الفرعوني، لم تكن أجنبية فحسب بل حكمت مصر كمستعمرة للإمبراطورية الفارسية، فقد غزا قمبيز الثاني مصر أولاً في ٥٢٥ ق.م ثم وقعت مصر تحت الحكم الفارسي للمرة الثانية سنة ٣٤٣ ق.م أيام حكم الملك نكتانبو الثاني من الأسرة ٢٩، وهو آخر الفراعنة المصريين الذين حكموا البلاد، أما الأسرة ٣١ - وهي آخر أسرات العصر الفرعوني التي انتهى حكمها بقدوم الإسكندر

في ٣٣٢ ق.م فكانت تمثل ملوكاً من الفرس: آرتاكسيريكس الثالث ٣٤٣-٣٣٨ ق.م، آرتسيز ٣٣٨-٣٣٦ ق.م وداريوس الثالث ٣٣٦-٣٣٢ ق.م.

من الواضح أن استبعاد البطالمة - الذين اعتبروا أنفسهم ملوكاً مصريين منذ البداية - عن العصر الفرعوني ليس عائداً إلى كونهم من أصل أجنبي، فالسبب الحقيقي لاستبعاد البطالمة الذي جرى خلال القرن العشرين، عقائدي أيديولوجي، وليس تاريخياً. فلم يتبع الباحثون الكلاسيكيون التطور الطبيعي للتاريخ المصري، لكنهم اتبعوا فهمهم الخاص لما كان هذا التاريخ يمثل لديهم، أرادوا اعتبار البطالمة حكاماً يونانيين، حتى يتمكنوا من إثبات استنتاجهم الخاطئ بأن عاصمة البطالمة في الإسكندرية كانت مدينة يونانية، وعلى ذلك تكون ثقافة الإسكندرية يونانية هيلينية وليست مصرية، ومع هذا فإن تاريخ الملوك المقدونيين الذين حكموا مصر، ليس فقط مخالفاً لهذا الاستنتاج، بل يتعارض معه كلية، فلم يأت الإسكندر إلى مصر - كما يدعون - في مهمة لنشر الثقافة الهيلينية ونظامها الإداري في بلادنا، بل إنه شخصياً اعتنق العقائد المصرية وقام الكهنة بتتويجه فرعوناً في مدينة منف.

عندما وصل الإسكندر إلى مصر في نوفمبر ٣٣٢، رحب به الشعب المصري كمحرر لبلادهم من اضطهاد الفرس، واضطر الحاكم الفارسي مازاسيز إلى الاستسلام، وقام الإسكندر بتقديم الأضحية إلى العجل أبيس المقدس في منف، عاصمة البلاد في ذلك الوقت، وهناك تم تتويجه بحسب التقاليد المصرية وارتدى تاج الأرضين الفرعوني، حيث قام الإسكندر بتطييب خاطر الكهنة وقبول العقائد المصرية، وأمضى الإسكندر ذلك الشتاء في تنظيم البلاد اعتماداً على حكام مصريين، بينما جعل الجيش تحت قيادة مقدونية منفصلة، وأعطى الإسكندر تعليماته لبناء مدينة الإسكندرية بالقرب من الفرع الغربي لدلتا النيل، بين البحر وبحيرة مريوط بحيث تحميها جزيرة فاروس في الشمال، سار الإسكندر بعد ذلك غرباً على شاطئ البحر، ثم نزل جنوباً داخل الصحراء الغربية لزيارة معبد آمون بواحة سيوة حيث أكد له

كاهن النبوءة أنه ابن آمون، وكان ولاء الإسكندر لمعبود النبوءة في سيوة كاملاً، فبعد مضي عشر سنوات - بينما كان الإسكندر يموت في بابل - أمر بأن يؤخذ جسده إلى واحة سيوة، ويتم دفنه بالقرب من والده آمون. وبحسب ما أورده ديودوروس عندما دخل الإسكندر إلى المعبد بصحبة الكهنة ليشاهد الإله، خاطبه أحد من الكهنة الكبار قائلاً: حماك الرب يا بني، وهذا اللقب (ابني) جاء إليك من آمون نفسه. فأجاب الإسكندر: قبلت يا أبي، ولو جعلتني سيد العالم كله سوف أدعى ابنك دائماً.

بعد وفاة الإسكندر وهو بعد شاب صغير، نشب الصراع بين قادته حول اقتسام الإمبراطورية وقام سوتر (بطليموس الأول فيما بعد) باختطاف نعش الإمبراطور سنة ٣٢٣ ق. م.، وجاء به إلى منف في مصر، حيث ثبت نفسه حاكماً للبلاد. وحكم سوتر مثل بقية القادة المقدونيين المتنازعين لتقسيم الإمبراطورية، باسم ورثة الإسكندر الشرعيين، فيليب آرهيديوس (المتخلف) - أخيه من أبيه - والإسكندر الرابع ابنه الطفل - من زوجته روكسان. وبعد موت ابن الإسكندر في ظروف غامضة، صار بطليموس حاكماً منفرداً لمصر. وبحسب ما أورده ديودورس الصقلي فإن بطليموس: أخذ حكم مصر دون مشكلات، وعامل الأهالي بلطف وجمع ٨٠٠٠ وزنة من المال، واستخدم قوة من الجند المرتزقة ونظم سلطته.[1]

وهناك نص هيروغليفي مهم: "مؤرخ للعام السابع للملك الإسكندر الصغير، وهو أول تقرير داخلي لدينا للحكم البطلمي يسمي سوتر)بطليموس): نص هيروغليفي يسميه حاكم عظيم اسمه بطليموس ... الذي أعاد تماثيل الآلهة (التي كان الفرس قد سرقوها) والتي وجدها في آسيا. كل الأثاث والكتب لكل المعابد في الشمال والجنوب، أعادها إلى أماكنها".[2] وبعد انتهاء الصراع بين قادة الإسكندر،

(1) Diodorus, xviii, 14.

(2) Mahaffy, The Empire of the Ptolemies, p. 70-71.

أصبح بطليموس متفرداً في مصر وأخذ لقب الملك عام ٣٠٥ ق. م. ونسمع عنه في كتابات الدلتا الهيروغليفية - خصوصاً في مسألة الحاكم - كملك فرعوني على الطريقة المصرية:

"في العام السابع للفيضان، وقدسية حورس الشاب الغني في قوته، سيد التيجان المحب للآلهة، الذين منحوه جلال والده، حورس الذهبي حاكم العالم، ملك مصر العليا ومصر السفلى، سيد الأرضين، مسرة قلب آمون الذي اختارته الشمس ابن رع، من الإسكندر الذي لا يموت ومن مدينة با وتب، الصديق.

إنه ملك في عالم غريب، كما كان قداسته داخل آسيا فكان حاكماً عظيماً في مصر، كان اسمه بطليموس ... فقد أعاد تماثيل الآلهة التي وجدها في آسيا مع الأثاث وكتب معابد شمال وجنوب مصر، أعادها إلى مواقعها. وجعل مقره قلعة الملك - محباً لاسم آمون الذي اختاره رع، ابن رع، الإسكندر ...

خاطبه وكيله وكبار مصر السفلى، في الأرض البحرية التي تسمى بوتو حيث وضع الملك تمثالاً لتانن مختار بتاح ابن رع ... خاطبوا قداسة الملك السيد وحورس ابن أوزوريس حاكم الحكام وملك الملوك لمصر العليا. ملك الملوك لمصر السفلى الذي انتقم لأبيه. سيد بي أصل الآلهة الذي لم يوجد ملك مثله ".(١)

وبحسب ديودوروس فإن بطليموس الأول كان حريصاً على تأكيد حقه الشرعي في الجلوس على عرش الفراعنة، وتقديم نفسه على أنه وريث شرعي لهم. وكان هذا هو السبب الذي جعله يأمر بأن يكون المعبود سرابس (وهو أوزوريس- أبيس عند المصريين)، هو الإله الرسمي لمدينة الإسكندرية، وعمل هو وخلفاؤه على تثبيت عقيدته. على هذا فإن الأسرة البطلمية التي حكمت مصر لثلاثة قرون قبل بدء التقويم الميلادي، لا تمثل حكماً أجنبياً واحتلالاً يونانياً كما يقول البعض، بل

(1) S. M. Darch, Tablet of Alexander IV Aegus in S. Birch (ed.) Records of the Past Series 1, Vol. X, London, 1878.

كانت أسرة مصرية من أصل أجنبي. وهم اعتبروا أنفسهم – كما اعتبرهم المصريون – خلفاء شرعيين للفراعنة. وبينما اعتمدوا في بداية حكمهم على المهاجرين من مقدونيا واليونان لإدارة البلاد، فقد تغير الأمر بعد ذلك تماماً – وخصوصاً منذ عهد بطليموس الرابع عند بداية القرن الثاني ق. م. – عندما أصبح المصريون أكثر أهمية سواء في الإدارة أو الجيش. "يخبرنا بوليبيوس إنه عندما كان فيلوباتر (بطليموس الرابع) يستعد للدفاع عن المملكة المصرية في مواجهة هجمات الملك السلوقي أنتيوجوس الثالث في هجومه (من سوريا) على فلسطين في ٢١٩ – ٢١٨ (التي كانت تابعة لمصر) قام هو – أو بعض وزرائه – بتسليح ٢٠ ألف جندي مصري في فيلق. ويضيف بوليبيوس أن نتيجة المساهمة الكبيرة التي قام بها الجنود المصريون في تحقيق النصر في معركة رفح في يونيو ٢١٧ (قبل الميلاد)، ثورة الأهالي التي استمرت بشكل متقطع لبضع سنوات ... ومن المعروف جيداً أن العناصر المصرية بدأت تسيطر على كل نواحي الحياة".[1]

ومن المعروف كذلك أن البطالمة منذ بداية حكمهم، أقاموا علاقة وطيدة مع الكهنة المصريين الذين امتدت سلطتهم على كل البلاد، كما قام البطالمة بإصلاح وترميم المعابد الفرعونية وأضافوا إليها معابد جديدة شيدوها، أهمها في إدفو، إسنا، دندرة، فيلة، كوم إمبو، واستمر البطالمة طوال فترة حكمهم في بناء المعابد على الطريقة الفرعونية وتقديم القرابين إلى الآلهة الفرعونية، كما ضمنوا للمعابد استمرار ريعها الذي كان قائماً من قبل.

الزعم إذاً بأن الإسكندر وخلفاءه أحلوا حضارة وثقافة هيلينية مكان الحضارة المصرية الفرعونية لا تدعمه الأدلة التاريخية المتوفرة لدينا. وعلى خلاف هذا الزعم، فإن الإسكندر والبطالمة حافظوا على التقاليد الفرعونية كما كانت. بل إن البطالمة

(1) P. M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, v. Oxford, 1972, p. 60.

أخذوا نظام الإدارة المصري كما هو دون تغيير يذكر، وكان تتويجهم للعرش يتم بالطقوس نفسها الفرعونية القديمة. فقد ظل نظام إدارة البلاد في عهد البطالمة فرعونياً في جوهره، مع استخدام جهاز من الكتبة المصريين الذين يحسنون اللغتين المصرية واليونانية، تم تقسيم البلاد إلى أكثر من ٣٠ إقليماً مع تقسيمات أخرى للمناطق والقرى، كما احتفظ الكهنة المصريون بمواقعهم المهمة ونفوذهم وثرائهم، واستمر العمل بالقوانين المصرية ونظم الإدارة والقضاء التي خضع لها الغالبية العظمى من المواطنين، إلى جانب بعض القوانين الملكية الجديدة التي صدرت بها مراسيم وقوانين في مواضيع خاصة. وفي الأمور العسكرية - ورغم أن البطالمة كان لهم في البداية جيش مكون من المقدونيين والجنود المرتزقة من اليونان والبلقان والكريتيين - فقد تغير الوضع بعد ذلك منذ أوائل القرن الثاني ق. م.، حيث تم تجنيد المقاتلين المصريين في الجيش.

في الجانب الثقافي، استمرت الموضوعات المصرية هي السائدة سواء في الفن أو الدين. وفي راقودة (وهي القرية المصرية التي كانت قائمة غرب مدينة الإسكندرية قبل بنائها، واستمرت بعد ذلك تمثل الحي المصري في المدينة الجديدة) تم إقامة معبد سرابس فوق ربوة مرتفعة وهنا كان السكندريون يتعبدون بحسب الطقوس التي حددها الكهنة المصريون التي ورثوها عن أجدادهم منذ مئات السنين.

"في حي راقودة المصري القديم على ارتفاع بسيط تم توسيعه، وبثراء من الرخام المصري والمواد النادرة التي جمعتها المعابد الكهنوتية بولائها، ارتفع معبد سرابس. كان هذا هو أروع بناء في الإسكندرية، يطل على العاصمة التي يشرف على كل أقسامها من موقعه الغربي. وهنا كان السكان المصريون واليونان يتعبدون عند مذابح واحدة".[1]

(1) W. G. Waddell, Manetho, William Heinenaan Ltd., London, 1940, p. 71.

وتبعاً للتقاليد الفرعونية مارس العديد من ملوك البطالمة عادة زواج الملك لأخته، منذ عهد بطليموس الثاني. ولم تكن العائلة البطلمية فقط هي التي تبنت عناصر الحضارة المصرية، فقد اعتنق المهاجرون اليونان العاديون عناصر الثقافة المصرية، وخصوصاً في المسائل المتعلقة بالدين ودفن الموتى: "هذا الاستيعاب (لعناصر الحضارة المصرية) انتشر منذ اللحظة الأولى داخل الطبقات الأمية والدنيا، وهي هنا كانت غريبة بالنسبة إلى اليونان، لكنهم تحولوا ببطء - عن طريق الزواج المشترك والتوافق الديني - إلى نموذج تكرر في أماكن أخرى من العالم.

ظلت كتب التاريخ حتى القرن العشرين في العصر الحديث، تعتبر ملوك البطالمة من بين الفراعنة. وقد ضمن جورج آر جليدون (١٨٣٧-١٨٤١) الملوك والملكات البطالمة في قائمة ملوك مصر القدماء، وهو من رجال الآثار البريطانيين الذين عملوا في مصر، كما ضمن جيمس هنري بريستد (وهو عالم أمريكي للمصريات) الإسكندر الأكبر وخلفاءه البطالمة في قائمة الملوك المصريين في كتابه "تاريخ مصر" الذي نشر في ١٩٠٦م. لكن الموقف تغير تماماً عندما تولى الباحثون الكلاسيكيون (الذين اعتبروا أن اليونان تمثل أصل الحضارة الحديثة) كتابة التاريخ المصري. فقد أصر الكلاسيكيون ومن تبعوهم على اعتبار البطالمة ملوكاً أجانب في مصر، جاؤوا في مهمة لنشر الثقافة اليونانية في البلاد. فرغم أن الحضارة الكلاسيكية اليونانية انتهت مع وفاة الفيلسوف أرسطو عند نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، زعم الكلاسيكيون أن نوعاً جديداً من حضارة اليونان - الحضارة الهيلينية- بدأت خارج الأرض اليونانية في الممالك المقدونية، وبخاصة في الإسكندرية، لهذا اعتبر الكلاسيكيون الفترة ما بين وصول الإسكندر إلى مصر في ٣٣٢ ق.م. والغزو الروماني لمصر في ٣٠ ق.م، هي عصر الحضارة الهيلينية.

التطور العام الذي حدث في القرن الخامس عشر، وأخرج أوروبا من ظلام العصور الوسطى إلى عصر النهضة - رينيسانس - تم نتيجة لإحياء حكمة المصريين

القدماء، خصوصاً ما يتعلق منها بالفلسفات الأفلاطونية الجديدة والهرمسية (المتعلقة بهرمس – توت – إله المعرفة) عندئذ كان الأوروبيون ينظرون إلى المصريين القدماء باعتبارهم أصل الحكمة والفنون، ويعتبرون الإسكندرية وثقافتها بمثابة تطور طبيعي للحضارة الفرعونية القديمة. فعندما وصلت بعض الكتابات الهرمسية في ١٤٦٠ إلى بلاط كوزيمو مديسي حاكم مدينة فلونسا الإيطالية، تمت ترجمتها من اليونانية إلى اللاتينية. وأصبحت هذه الكتابات والأفكار التي تحتويها مركز الحركة الأفلاطونية الجديدة التي بدأها فيشينو الذي تولى ترجمة هذه الكتابات، والتي صارت بعد ذلك نقطة البداية لعصر النهضة. في ذلك الوقت قام عالم الفلك البولندي نيكولاس كوبورنيكوس بطرح نظريته التي تقول بدوران الأرض حول الشمس، التي أدت إلى العودة إلى عقيدة الطبيعة الأصلية لمصر القديمة.

إلا أن الوضع تغير بعد ذلك في القرن التاسع عشر، حيث رفض الكلاسيكيون أفكار عصر النهضة فيما يتعلق بالأصل المصري للحضارة، كما رفضوا قبول كتابات اليونان القدماء الذين تحدثوا عن التأثير الفرعوني على الفكر الغربي، وكما كتب جون بيرنت: "الفكرة الشائعة حتى الآن هي أن اليونان أخذوا فلسفتهم بشكل ما عن مصر وبابل، لهذا لا بد لنا من محاولة تفهم ماذا تعني هذه الفكرة حقيقة ... فمعظم ما تم اعتباره شرقياً قد يكون محلياً. أما فيما يتعلق بالتأثير المتأخر، فلا بد لنا أن نصر على عدم وجود أي كاتب في عصر نمو الفلسفة اليونانية يعرف شيئاً عن قدومها من الشرق ... فأفلاطون الذي كان يحترم المصريين لأسباب أخرى، يصنفهم كأناس عمليين وليس كفلاسفة، ولم يتحدث أرسطو سوى عن أصل الرياضيات في مصر ... ولم يحدث إلا متأخراً عندما بدأ الكهنة المصريون ويهود الإسكندرية يتنافسون لاكتشاف أصل الفلسفة اليونانية في تاريخهم الخاص، عند ذلك ظهرت روايات تقول بأن الفلسفة اليونانية جاءت من فينيقيا أو مصر".(1)

(1) John Burnet, Early Greek Philosophy, A & C Black Ltd., London, 1935, pp. 15-16.

في العصر الحديث تم تأكيد الطبيعة الفرعونية لمصر البطلمية، بفضل أعمال البحث الأثري كما سيتضح لنا فيها بعد، وقد تحدث الباحث البريطاني بيتر جرين عن هذا الموضوع فكتب يقول:

"من الصعب متابعة انتشار الأفكار الثقافية اليونانية في... الشرق بأية ثقة حقيقية وتفسير أدبي حقيقي بين الثقافة اليونانية والثقافات الأخرى، فليس هناك أي أثر لهذا، فمن ناحية فإن الترجمة الأدبية (عن اليونانية)... تبدو غير موجودة، وهي علامة مؤكدة على الاختلاف في الذوق... ففي مجال الفنون المرئية والعمارة والموسيقى (وهو المجال الذي يوجد فيه القليل من الأدلة المكتوبة) توحي بتأثير النماذج والأدوات الشرقية على اليونانية، حتى في مجال الفن والمعمار، فما يشار إليه عادة كدليل على انتشار (الثقافة اليونانية) بهذه الطريقة ليس هو كذلك".[1]

كما بينت الدراسات الحديثة عدم صدق ما قال به الباحثون الكلاسيكيون: "بدلاً من اعتبار وصول الإسكندر الأكبر وقائده بطليموس ممثلاً خطاً فاصلاً في التاريخ المصري، يمكن القول بأنه برغم أنه من المؤكد حدوث بعض التغييرات السياسية المهمة فيما بين منتصف الألف الأول قبل الميلاد ومنتصف الألف الميلادي الأول، فإن هذه التغيرات جرت ضمن عملية تدرج مريح نسبياً لتغييرات اجتماعية واقتصادية، وقد تكون عناصر مهمة من الحضارة الفرعونية قد عاشت - تقريباً كما هي - لآلاف السنين، بعد مرورها بتغييرات سياسية وثقافية عند بداية العصر الإسلامي في ٦٤١ ميلادية".[2]

(1) Peter Green, Alexander to Actium, University of California Press, 1990, p. 315.

(2) Ian Shaw (editor), The Oxford History of Ancient Egypt, Oxford University Press, 2000, p. 13-14.

هل كانت الإسكندرية يونانية؟!

يعتبر المؤرخون الكلاسيكيون أن الإسكندرية لم تكن جزءاً من الأرض المصرية، بل كانت مدينة يونانية بنيت عند حدود مصر، وهذا هو الرأي السائد اليوم في جميع مراكز دراسة التاريخ في العالم. ولهذا فإذا أردت الحصول على كتاب يتعلق بتاريخ الإسكندرية في أية مكتبة أو متحف في العالم، فأنت لا تجده في القسم المصري وإنما في القسم اليوناني، وهذا هو ما يؤكده بيتر جرين أستاذ الدراسات الكلاسيكية في جامعة تكساس عندما يقول: "لم تكن الإسكندرية في مصر بل كانت عندها".[1] لكن هذا الرأي لم يظهر لدى الباحثين إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر، بينما كانت الإسكندرية قبل ذلك التاريخ تعتبر دائماً مدينة مصرية وجزءاً من تاريخ مصر الفرعوني. ففي قرار صدر عن سكان مدينة ديلوس عندما كانت الجزيرة خاضعة لبطليموس الثاني، ورد ذكر "الإسكندرية التابعة لمصر".[2] وليس هناك مصدر واحد من المصادر الكلاسيكية يتحدث عن الإسكندرية على أنها مدينة يونانية. وقد تحدث ثلاثة من الكتاب الذين زاروا الإسكندرية عن وضع المدينة في عهد البطالمة، وكتبوا عن تاريخها في تلك الفترة، وهم بوليبيوس وديودوروس واسترابوا، الذين تحدثوا جميعاً عن الطبيعة المصرية لهذه المدينة التي يسكنها أناس من جميع أنحاء العالم.

بوليبيوس هو سياسي ومؤرخ يوناني شاهد سقوط المدن اليونانية تحت سلطة الرومان، وزار الإسكندرية بين ١٤٥ و ١١٦ قبل الميلاد، وكتب بوليبيوس يصف ما شاهده شخصياً في الإسكندرية خلال زيارته، ومع هذا فهو لم يتحدث عن المدينة

(1) Peter Green, Alexander to Actium, University of Californis Press, 1990, p. 139.

(2) P. M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, p. 108.

باعتبارها يونانية، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد ذكر أن المدينة التي زارها خلال القرن الثاني قبل الميلاد، كان طابعها مصرياً أكثر منه يونانياً: "زيارة خاصة للإسكندرية ملأتني بالنفور... فالمدينة... يسكنها ثلاثة أجناس - المواطنون المصريون وهم جنس ذكي متحضر، والجنس الثاني من الجنود المرتزقة... الذين تعلموا كيف يتحكمون بدلاً من أن يطيعوا (الأوامر) نتيجة للشخصية الضعيفة للملوك، والجنس الثالث هم السكندريون... وهم أفضل من الجنس الثاني، فرغم كونهم جنساً مختلطاً، فهم أصلاً من اليونان كما احتفظوا بمجموعة من المبادئ اليونانية، لكن هذا الجنس الأخير يكاد يكون قد انقرض بفضل يورجيتس فيسون (بطليموس الثامن)، الذي زرت الإسكندرية في عهده".[1]

كما تحدث استرابو الجغرافي الذي زار الإسكندرية بعد بضع سنوات من سقوطها في يد الرومان عن هذه المدينة - كما رآها حوالي سنة ٢٥ قبل الميلاد - مؤكداً أنها كانت مصرية وليست يونانية: "من المستحيل تحديد ما إذا كانت الإسكندرية (التي هي) في مصر، تقع شمالي أو جنوبي بابل".[2]

ليس هناك مصدر كلاسيكي واحد يعود إلى فترة البطالمة يتحدث عن الإسكندرية بوصفها "عند" مصر. بل على العكس - كما رأينا من أدلة بوليبيوس واسترابو - كما كانت الإسكندرية هي عاصمة البلاد بها المقر الملكي، فهي جزء من مصر جغرافياً وثقافياً، وعلى هذا فلا يوجد دليل يدعم الزعم بأن الإسكندرية نشأت كمدينة يونانية، مستقلة عن بقية الأراضي المصرية. حقاً كانت الإسكندرية مدينة ذات أجناس متعددة - كوزموبوليتان - جرى بناؤها لتحقيق حلم الإسكندر الأكبر في التوافق بين الشعوب، هنا عاش المصريون جنباً إلى جنب مع المقدونيين

(1) The History of Polybius, II.34.14.

(2) Strabo, 1.1.12.

واليونان واليهود والعرب الأقباط والفينيقيين والليبيين والفرس والأفارقة. ورغم انتمائهم إلى أعراق مختلفة، فقد عملوا سوياً لإنتاج أول نهضة حضارية في تاريخ البشر، وأصبح معبد السرابيوم بالإسكندرية مركزاً عالمياً للمعرفة والحكمة واحتوت مكتبته نسخاً لكل فروع المعرفة، جرى تجميعها في مكان واحد من كل مصادر الحضارات القديمة، فهنا تم التعرف للمرة الأولى إلى توراة موسى وإنجيل المسيح وفلسفة هرمس، جنباً إلى جنب مع كل فروع معارف العلوم الطبيعية.

اكتشاف قصر كليوباترا

وقع كشف أثري هام بالإسكندرية في عام ١٩٩٨، سيكون له أثر كبير في تغيير فهمنا للتاريخ الكلاسيكي. وتحت عنوان "البحر يسلم كنز كليوباترا"، نشرت صحيفة الصنداي تايمز اللندنية هذه القصة في ٢٥ من أكتوبر ١٩٩٨: "تم الكشف عن القصر الملكي الأسطوري لكليوباترا الذي فيه عشقت يوليوس قيصر، الذي تم استرجاعه من تحت أمواج البحر المتوسط حيث رقد منذ أكثر من ألف و ٦٠٠ سنة" تم هذا الكشف المهم بعد أن صرحت السلطات المصرية في ١٩٩٠ للمعهد الأوروبي للبحث الأثري تحت الماء، بالعمل بالقسم الشرقي للميناء الشرقي، حيث كان يقع الحي الملكي في عهد البطالمة، وبعد بضع سنوات من البحث وعمل الخرائط، تمكن فرانك جوديو - القائد الفرنسي لبعثة الآثار المائية - من الإعلان عن اكتشافه للقصر الملكي لكليوباترا (٥١-٣٠ ق. م.)، التي كانت آخر حكام الأسرة البطلمية، وقد عثر الغطاسون الذين يعملون مع جوديو على أرضيات من الرخام في قاع البحر، يعتقد أنها في موقع قصر كليوباترا. وعثر الغطاسون كذلك على كتل من حجر الجرانيت الأحمر وأعمدة مكسورة فوق جزيرة أنتيرودس التي تغمرها المياه، دليل آخر لجوديو لتأكيد موقع الحي الملكي. وتم استعادة بقايا من قصر كليوباترا من تحت مياه البحر المتوسط، كانت مختفية منذ ١٧ قرناً، كما أبلغ الغطاسون عن مشاهدتهم لأعمدة وتماثيل للآلهة المصرية وأحواض وأفران وحتى حوائط، يعتقد البعض بوجود حمامات كليوباترا بينها.

وبعد مرور أربعة أيام على تقرير الصنداي تايمز، نشرت وسائل الإعلام العالمية تفاصيل أخرى عن هذه الكشوفات التي كان من بينها شكل لأبي الهول، وعدة تماثيل دينية ظهرت للمرة الأولى بعد حوالي ألفي عام، عندما تم رفعها من بين بقايا مدينة

الإسكندرية التي غرقت تحت سطح الماء، وعثر كذلك على تمثالين عند مدخل معبد صغير داخل قصر كليوباترا، يمثل أحدهما والد الملكة (بطليموس الثاني عشر) مصنوعاً من الجرانيت الرمادي. هذا المعبد الملكي لإيزيس لم يرد ذكره في كتابات استرابوا، الذي يعتبر أهم مصدر كتب عن الإسكندرية القديمة. وقد سر فراك جوديبو للعثور على هذا المعبد الذي يبلغ ارتفاعه ٢٠ قدماً، وقال للصحافيين إن هذا المعبد: "لم يكن معروفاً، وكان علينا توقع وجود مثل هذا المعبد بالقرب من القصر الملكي. هذا كشف مثير." كما تم العثور على تمثال بالحجم الطبيعي لكاهن حليق الرأس، يرتدي عباءة ويحمل جرة لها غطاء على شكل رأس أوزوريس إله الموتى، وهكذا، بعد خمس سنوات من أعمال الكشف الأثري تحت سطح الماء، أعلن فرانك جوديبو قائد البعثة أنه تمكن من التعرف إلى موقع قصر كليوباترا وتحديد مكان الحي الملكي للبطالمة، الذي كان أهم مركز سياسي في تلك الحقبة من التاريخ، لكن أرض هذا الحي كانت تنزلق تدريجياً لمئات السنين، مما أدى إلى سقوط البنايات، حتى جاء زلزال قوي سنة ٣٦٥ ميلادية، تبعته أمواج عاتية أغرقت الحي الملكي بأكمله.

جاء العثور على معبد فرعوني داخل منطقة القصور الملكية البطلمية، بمثابة مفاجأة غير متوقعة لدى رجال الآثار الذين لم يتوقعوا العثور على بقايا فرعونية في عاصمة البطالمة. هذا المعبد الصغير لإيزيس، وجد على مقربة من مقر الملكة كليوباترا وعند مدخله بقايا فرعونية: أشكال لأبي الهول وتمثال الكاهن المصري وكذلك تمثال لوالد كليوباترا منحوت على الطريقة الفرعونية المصرية. وأثارت الكشوفات الجديدة تعليقات الباحثين، حيث علق زولت كيس – البروفيسير في أكاديمية العلوم البولندية – على الطبيعة الفرعونية للآثار التى تم العثور عليها في الحي الملكي البطلمي قائلاً: "بالتأكيد يمكننا القول في ضوء هذه الكشوفات إن إسكندرية البطالمة والرومان كانت قليلة الهيلينية وكثيرة المصرية عما كان عليه الاعتقاد". (جريدة التايمز في ٢٩/ ١٠/ ١٨٨٩م)

لما كانت وجهة النظر الكلاسيكية تعتقد أن الإسكندرية القديمة كانت يونانية، فقد جاءت الطبيعة الفرعونية لقصر كليوباترا مفاجئة بشكل كبير. حتى أن الدكتور مصطفى العبادي – وهو أستاذ الدراسات اليونانية الرومانية بجامعة الإسكندرية – أصر على أن "الإسكندرية كانت يونانية تماماً."(1) ومع هذا، فإن الكشف عن إسكندرية كليوباترا قد بين – بعكس ما يعتقده الدكتور العبادي – أن عاصمة البطالمة كانت مدينة مصرية فرعونية، وقد أدى العثور على بقايا فرعونية بدلاً من البقايا اليونانية داخل قصر الحاكم البطلمي إلى صدمة لدى بعض الباحثين الكلاسيكيين، ومع هذا رفض جين يويوت – الأستاذ بالكوليدج دي فرانس – قبول الاستنتاجات السابقة، أمام المئات من رجال الصحافة والإعلام الذين جاؤوا إلى الإسكندرية لحضور المؤتمر الصحافي، آملين في الحصول على بعض التفسيرات حول الطبيعة الفرعونية لقصر كليوباترا، ولكن ما قاله يويوت للصحافيين زاد من حيرتهم وأغلق ملف التساؤلات، على الأقل في الوقت الحاضر. وقد نشر يويوت رأيه الذي قاله للصحافيين في كتاب باسم "الأحياء الملكية المغمورة" تم نشره في لندن بعد ذلك. يقول يويوت:

"علينا أن نحذر من الشروحات المتعجلة والتبسيطية فيما يتعلق بما يعثر عليه وتتم رؤيته في الموقع، ونبقي الأسئلة والإجابات داخل الإطار العام للبحث في التاريخ القديم ... فلكون الإسكندر هو القائد الأعلى للتحالف الهيليني (اليوناني) فمن الطبيعي أن يقوم ببناء مدينة يونانية، فالمهندسون اليونان قاموا ببناء مدينة على الطراز اليوناني ... ومع الملوك البطالمة أصبحت الإسكندرية (التي تقع) عند حدود مصر، واحدة من محاور الثقافة الهيلينية ... فالإسكندرية كانت وسوف تكون دائماً

(1) The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, UNESCO/UNPD, France, 1990, p. 60.

مدينة يونانية كاملة، خارجة ومنفصلة عن قلب مصر القديمة. فهي في كتاباتها وبقاياها تنتمي إلى الهيلينيين (اليونان)."[1]

كان فراك جوديو رئيس بعثة الغطس الأثرية قد اختار يويوت للقيام بعمل كشوفات تتضمن المكتشفات التي تم العثور عليها، وترجمة النصوص الهيروغليفية الموجودة بها، لكن الأستاذ الفرنسي قرر تجاوز مهمته حتى يمنع أجهزة الإعلام من قبول النتيجة المنطقية التي توصلوا إليها في البداية، من أن قصر كليوباترا يشير إلى الطبيعة الفرعونية لحكم البطالمة، بل إنه تمادى في محاولة فرض رؤيته الخاصة على البعثة بأن حدد لجوديو نفسه المهمة التي عليه أن يلتزم بها، أي البحث عن قصر يوناني وليس مصري:

"تسبب افتتان الإنسان الحديث بماضي مصر السحيق، ... في أن تغطي الثقافة المصرية المنقرضة على بقايا الحضارة الكلاسيكية التي سادت في الإسكندرية: فكل من الصحافة ووسائل الإعلام المرئي والمسموع، بمجرد ما تأكد من (قصر) كليوباترا البطلمية وفنارة بطليموس، أسرعوا بذكر وتكرار (الحديث عن) التماثيل الضخمة وأشكال أبى الهول، والمسلات المنحوتة من الجرانيت الأسواني والأعمدة التي على شكل أوراق البردي والعلامات الهيروغليفية. (يتحدثون عن الملك) سيتي ورمسيس، بدلاً من طرز الإيونك والدورك والطراز الكورنثي (اليونانية) والأعمدة الرومانية للأسرة البطلمية وللقياصرة.

صارت أشكال أبى الهول التي وجدها الغطاسون تحت الماء، هي نجوم العرض المصور هنا وهناك، (صارت) الإسكندرية تساوي (معبد) الكرنك! وبالطبع فإن هذا العرض استدعى صورة محرفة عن الواقع في عقل الجمهور عن الإسكندرية، وجرى نقل آثار الإسكندرية من مجال الكلاسيكيات إلى مجال

(1) The Submerged Royal Quarters, p. 199.

المصريات..... وبالمناسبة فإن المكتشفين أنفسهم تأثروا بهذه الآثار الشرقية، التي وإن كانت أقل عدداً لكنها أكثر شيوعاً وأكثر استعراضاً، مما أدى إلى أن العلماء - حتى اليوم - عرفوا أكثر عن المصريات التي وجدت تحت الماء، عما عرفوا عن اليونانيات."[1]

إلا أن يويوت كان مضطراً إلى تقديم تفسير ما عن كيفية وجود هذه البقايا الفرعونية الكثيرة داخل نطاق الحي الملكي البطلمي، حتى عهد كليوباترا عند نهاية حكم البطالمة:

"تعودنا تصور الإسكندرية الهيلينية كمدينة ذات بيئة يونانية خالصة، بحيث تشبه معابدها ما هو موجود في أثينا أو إفسوس، وحيث أظهر القسم اليوناني من السكان المسيطر عادات وأذواقاً يونانية، دون وجود أعمال أجنبية... ومن المعروف جيداً وجود أناس من أصول مصرية في المدينة (الإسكندرية)، ومع هذا فإن الفكرة السائدة هي أنه، لا يجب أن تكون في الإسكندرية أية إشارات إلى وجود طقوس عبادة محلية تتبع التقاليد المصرية، كيف إذاً يمكننا تفسير الوجود الفرعوني في الإسكندرية؟"[2]

وبدلاً من أن يجيب عن السؤال الذي طرحه، رفض يويوت القبول بأن البقايا الفرعونية التي عثر عليها الغطاسون عند قاع البحر، كانت لها علاقة بالقصر الملكي أو الإسكندرية البطلمية بشكل عام. وأصر يويوت على أن المدينة التي بناها البطالمة، ظلت عالماً يونانياً خارج مصر وموازياً لها. أما البقايا الفرعونية التي وجدت في قاع البحر فيصر يويوت على أنها لم تصل إلى الإسكندرية إلا بعد حوالي سبعين سنة من نهاية حكم كليوباترا، حيث أحضرها الإمبراطور الروماني جايوس كاليجولا (٣٧-٤١ م.). وينهي يويوت تحليلاته قائلاً:

(1) The Submerged Royal Quarters, p. 200.

(2) The Submerged Royal Quarters, p. 202.

"لا يجب ألا تنحرف أفكارنا بسبب الأثر الاستعراضي للفراعنة والهيروغليفية، (علينا) أن نحدد مهمة رجال الآثار المتخصصين في دراسة الفن الهيليني (اليوناني) والروماني و(العصر) المسيحي الأول".[1]

هل كانت الإسكندرية حقاً مدينة يونانية على حدود مصر كما يصر البروفيسير يويوت، أم أنها كانت مدينة مصرية تمثل امتداداً للحضارة الفرعونية؟ هل صحيح أن عاصمة البطالمة صارت تمثل مرحلة هيلينية جديدة لحضارة اليونان التي انتهت في أثينا، أم أنها كانت تمثل المرحلة الأخيرة لحضارة الفراعنة المصريين؟

قرر الإسكندر الأكبر بناء مدينة الإسكندرية في تاريخ يحدد عادة بالسابع من أبريل ٣٣١ قبل الميلاد، في موقع شرقي راقودة التي كانت قرية مصرية للصيادين منذ ثلاثة قرون على الأقل من بناء المدينة الجديدة، وكان الموقع الذي تقرر بناء المدينة الجديدة عليه بمثابة مستطيل ضيق من الأرض، يمتد حوالي ميلين بين البحر المتوسط شمالاً وبحيرة مريوط جنوباً. كما كانت هناك جزيرة فاروس على بعد نصف ميل في البحر قبالة هذه الأرض، تحمي موقع المدينة من أمواج البحر كما تساعد على تكوين ميناء طبيعي، وتم تقسيم المدينة عند بنائها إلى ثلاثة أقسام:

١ – القسم الغربي يمثل قرية راقودة القديمة الذي أصبح مسكناً للعناصر المصرية في العاصمة الجديدة، وكان به معبد السرابيم الرئيسي في الإسكندرية، وكذلك المدافن التي تقع في أقصى الغرب.

٢ – صار وسط المدينة المطل على الميناء يعرف باسم بروخيان، وهو القسم الذي شيدت فيه القصور الملكية وسكنه المقدونيون واليونان، هنا كانت دواوين الحكومة والأسواق التجارية والبنايات العامة، بما في ذلك الموسيون – المتحف – والسوما التي تحتوي على مدافن الملوك، بما في ذلك المدفن الذي وضع فيه جسد الإسكندر لبعض الوقت.

(1) The Submerged Royal Quarters, p. 208.

٣ - أما القسم الثالث الواقع شرقي المدينة فقد سكنته في البداية الجماعات اليهودية التي شجعها الإسكندر وخلفاؤه على المجيء إلى المدينة ومنحوهم بعض الامتيازات.

منذ بداية أعمال الكشف الأثري لم يهتم علماء المصريات بمدينة الإسكندرية، التي اعتبروها مدينة يونانية هيلينية وليست مصرية. لهذا ترك أمر البحث الأثري بها لمديري المتحف اليوناني الروماني، الذي تم بناؤه في ١٨٩٢م. ولم يتغير هذا الوضع إلا في ١٩٦١م عندما عثر الغطاس السكندري كمال أبو السادات على تمثال ضخم، نائم فوق قاع البحر أسفل قلعة قايتباي، شرقي جزيرة فاروس القديمة، وعندما تمكن أبو السادات من إقناع رجال البحرية من انتشال التمثال من قاع البحر، تبين أنه يمثل إحدى ملكات البطالمة التي ظهرت على شكل المعبودة الفرعونية إيزيس. ثم جاءت الخطوة الثانية عندما قررت السلطات المصرية تقوية الدعامات الموجودة في البحر؛ لحماية الجانب الشرقي للميناء القديم، .وهو نفس الموقع الذي وجد فيه التمثال، أرادت السطات التأكد من عدم وجود آثار أخرى في هذا الموقع قبل ردمه بالحجارة، فطلبت المساعدة من هيئة اليونسكو العالمية التي أرسلت البريطانية أونور فروست لفحص الموقع، وجاء تقرير الخبيرة البريطانية يؤكد وجود آثار قديمة مغمورة تحت سطح الماء أسفل أسوار قلعة قايتباي.

وعندما تقرر السماح لأصحاب البنايات الواقعة في وسط الإسكندرية بهدمها وإعادة بناء عمارات حديثة مكانها، أرسلت الحكومة بعض رجال الآثار لفحص هذه المواقع والتأكد من خلوها من البقايا الأثرية، قبل تشييد الأبنية الجديدة. وفي ١٩٩٢م دعت السلطات المصرية المركز الفرنسي للدراسات السكندرية إلى القيام ببعض أعمال الكشف في هذه المواقع، وسط المدينة، وقام المركز الفرنسي بعمل حوالي عشر حفريات في مواقع مختلفة من وسط المدينة المسكونة، إلى جانب موقعين تحت سطح الماء عند الميناء الشرقي، وكذلك في منطقة الجبانة غربي المدينة القديمة،

وفي العام نفسه منحت السلطات المصرية تصريحاً للمعهد الأوروبي للبحث الأثري تحت الماء، بالانضمام إلى عمليات الكشف، وبدأ العمل في القسم الشرقي للميناء الشرقي، حيث ساد الاعتقاد بوجود الحي الملكي للبطالمة.

بعد ست سنوات من العمل الكشفي الذي قام به المعهد الفرنسي، استطاع رجال الآثار من دراسة تتابع طبقات الأرض خلال كل مراحل البناء في الإسكندرية القديمة، وهكذا تمكنوا بعد حفر عشرة أمتار تحت سطح الأرض من استعادة ألفين و٣٠٠ سنة من التاريخ، تمتد من أيام حكم المماليك (١٢٥٠-١٥١٧) وحتى أول جماعة استوطنت المدينة خلال القرن الثالث قبل الميلاد، أما القبور المستديرة التي عثر عليها في كوم الشقافة - غربي موقع راقودة القديم - وعلى عمق ٢٠ متراً تحت سطح الأرض، فتبين أنها ترجع إلى فترة الحكم الروماني، وهنا - حتى بعد مضي أكثر من مائة عام على نهاية حكم البطالمة - وجدت عناصر فرعونية في هذه المقابر. ففي أعلى مدخل القبو الرئيسي للمقبرة وجد شكل مفرغ فوق كورنيش فرعوني مستدير، يمثل صقرين على جانبي شمس مستديرة لها جناحان، وفي داخل المدفن عثر على منظر فرعوني كذلك فوق التابوت، يمثل عبادة عجل أبيس وتحنيط أوزوريس، كما وجد منظر يمثل المعبود حورس ذا رأس الصقر وتابوتاً له رأس أبي قردان يحيطان بأنوبس حارس الموتى في النظام الفرعوني، الذي يقوم بتحنيط جسد أوزوريس، ومن الواضح أن سكان الإسكندرية، حتى بعد مرور أكثر من قرن على وقوعهم تحت سيطرة الرومان، كانوا لا يزالون يحافظون على العقائد الفرعونية القديمة.

في عام ١٩٩٤م طلبت السلطات المصرية من عالم الآثار الفرنسي جين إيف إمبرير، أن يضع منطقة قاع البحر الموجودة أسفل قلعة قايتباي ضمن عملية إنقاذ الآثار التي كان يتولاها في وسط المدينة. وبمجرد بداية فحصه للموقع، تمكن من مشاهدة كتل حجرية ضخمة مكومة على عمق ٨ أمتار تحت سطح الماء - ومئات من

القطع منتشرة فوق مساحة تبلغ حوالي خمسة أفدنة فوق قاع البحر. وعثر فريق إمبرير على بقايا تمثال يمثل جذع إنسان وحوالي ست قواعد لتماثيل أصغر حجماً وأجساد لأشباه أبى الهول التي فقدت رؤوسها. في الإجماع تم العثور على حوالي ٣ آلاف كتلة من الحجر والمئات من قطع أعمدة فرعونية مكسورة، يبلغ قطر بعضها حوالي ٦٠ سنتيمتراً ويصل قطر أكبرها إلى مترين وثلاثين سنتيمتراً، إلى جانب العديد من قواعد الأعمدة منتشرة فوق قاع البحر.

كما تم العثور على الخرطوش الملكي لرمسيس الثاني من الأسرة ١٩، منقوشاً على عدة أعمدة على شكل ورق البردي، وقطع مكسورة من ثلاث مسلات لأبيه الملك سيتي الأول. وظهر رسم للفرعون فوق مسلتين وهو يقدم القرابين لمعبودات عين شمس، بينما ظهر الفرعون على جانبين من المسلة الثالثة على شكل حيوان يمثل المعبود سيت قاتل أوزوريس، وظهر على الجانبين الآخرين شكل أبى الهول له رأس إنسان. وبشكل عام زاد عدد أشكال أبى الهول التي وجدت على ما عثر عليه من مسلات: حوالي ٢٥ شكلاً في أحجام مختلفة ومن تواريخ متعددة ما بين الأسرة الثانية عشر والأسرة السادسة والعشرين، وتبين أن هذه الآثار جميعها تم نقلها من مدينة عين شمس إلى الإسكندرية.

ومن أهم ما عثرت عليه بعثة إمبرير عند قاع البحر كان جذعاً لتمثال ضخم منحوت من جرانيت أسوان الأحمر، يبلغ ارتفاعه من القاعدة إلى الرقبة أربعة أمتار و ٥٥ سنتيمتراً، ويمثل ملكاً بطلمياً على شكل فرعون. كما وجدت بقايا ثلاثة تماثيل أخرى: رأسان لفراعنة بطالمة وصدر لامرأة وست قواعد لتماثيل.

وبعد عشرة أعوام من أعمال الكشف الأثري في الإسكندرية، كتب إمبرير يعبر عما شعر به عندما شاهد هذه الآثار الفرعونية بالإسكندرية وعن طبيعة المدينة القديمة:

"هذه المنتجات المتعددة للعصر الفرعوني – أشكال أبى الهول والمسلات والأعمدة على شكل البردي ... تحمل شهادة بليغة على (عملية) الاقتراض (التي تمت) من المعبد في عين شمس التي قام بها البطالمة ثم أباطرة الرومان. وهي تنضم إلى البقايا ذات الملامح الفرعونية التي عثر عليها خلال أعمال الكشف فوق الأرض الجافة (في المدينة) وتعطي ... مدينة الإسكندرية شخصية خاصة، فالمدينة لا بد وأنها في بعض الأجزاء كان لها طابعاً مصرياً."[1]

وهكذا فإن الكشوفات الأثرية الجديدة بدأت تغير الفكرة الكلاسيكية القديمة عن أن مدينة الإسكندرية كانت يونانية، وتظهر طبيعتها المصرية الفرعونية.

(1) Alexandria Rediscovered, Jean-Yves Empereur, British Museum, p. 75.

من أنشأ مكتبة الإسكندرية؟

أصر أساتذة الدراسات الكلاسيكية منذ القرن التاسع عشر، على أن مكتبة الإسكندرية لم تكن مصرية بل كانت هيلينية يونانية، وزعموا أن المكتبة أنشأها باحثون من اليونان، الذين أقاموها على نواة من الكتابات والمعارف اليونانية، ولما كانت اليونانية هي لغة الكتابة الرسمية في أيام البطالمة، اعتبروا أن كل ما تمت صياغته بهذه اللغة كان يونانياً، ولا يزال هذا الرأي الغريب هو السائد الآن حتى في مصر نفسها، حيث يفاخر بعض الأساتذة بأن مكتبة الإسكندرية كانت يونانية، فالدكتور مصطفى العبادي – وهو المرجع الرئيسي في مصر بخصوص المكتبة – يؤكد في كتابه "حياة ومصير مكتبة الإسكندرية القديمة"، الطبيعة اليونانية لمدينة الإسكندرية ومكتبتها.

هل كانت مكتبة الإسكندرية التي أسسها البطالمة، مؤسسة يونانية أم مصرية؟

حتى يمكننا الإجابة على هذا السؤال يجب علينا أولاً معرفة تاريخ تكوين المكتبة، ومن كان مؤسسها، وأين كان موقعها في المدينة القديمة. كما يجب علينا كذلك التعرف إلى نوعية الكتابات التي وجدت في المكتبة، وهل كانت تمثل في جوهرها علوماً يونانية أم معارف مصرية. وحتى القرن التاسع عشر كان هناك توافق عالمي على أن مكتبة الإسكندرية بنيت على نواة من حكمة مصر الفرعونية، إلى جانب تجميع النتاج الثقافي لحضارات الشرق الأوسط القديمة وكتابات شعراء بلاد اليونان. لكن هذه الفكرة تغيرت خلال القرن التاسع عشر في عصر ظهور القوميات الأوروبية الحديثة، واستعمارها للعالم الشرقي، عندئذ ظهر رأي جديد بين باحثي التاريخ الكلاسيكي، زعم بأن الإسكندرية وما أنتجته من ثقافة لم يكن مصرياً أو شرقياً، بل كان هيلينياً يونانياً. جاء هذا الاعتقاد نتيجة ظهور أيديولوجية قومية

عنصرية في أوروبا، اعتبرت أن الأجناس الآرية البيضاء التي تسكن أوروبا تتفوق في طبيعة تكوينها البيولوجي على الأجناس الشرقية. هذا التطور في الفكر القومي الذي بدأ منذ حوالي قرنين خصوصاً في ألمانيا، نتج عنه ظهور اعتقاد بأن الحضارة الكلاسيكية في اليونان نشأت مستقلة بعيداً عن حضارات الشرق القديمة، ولم تتأثر بها، واعتبرت هذه الأيديولوجية (ذات الطبيعة القومية الرومانتيكية التي ظهرت في أوروبا خلال القرن التاسع عشر) أن الثقافة مرتبطة بالأصل السلالي، هذه الأيديولوجية التي غيرت الموقف فيما يتعلق بعلاقة الحضارة الفرعونية بحضارة اليونان، وبالتالي بالحضارة الأوروبية الحديثة.

لما كان من المعروف أن الحضارة الكلاسيكية في اليونان انتهت حتى قبل بناء مدينة الإسكندرية أو مكتبتها، فقد استخدم الكلاسيكيون تعبيراً جديداً للدلالة على ما أنتجته الإسكندرية من ثقافة، هو "الهيلينية" بمعنى الثقافة اليونانية التي لم تظهر في بلاد اليونان نفسها، وإنما في الخارج - خصوصاً في الإسكندرية - قام بتقديم هذا التفسير للمرة الأولى المؤرخ الألماني يوهان جوستاف درويسون في القرن ١٩، ثم صار بعد ذلك بمثابة الكتاب المقدس للباحثين الكلاسيكيين في كل أنحاء العالم. وحتى يؤكد الكلاسيكيون صحة نظرية درويسون، قاموا بإعادة تفسير مصادر التاريخ القديم لكي تتفق معها، ولما كان المصدر الرئيسي لما يسمونه "ثقافة هيلينية" قد جاء من مكتبة الإسكندرية، أصبحت هذه المكتبة مركزاً لاهتمامهم، قالوا إن مكتبة الإسكندرية بناها اليونان، الذين أقاموها على ركيزة من العلوم اليونانية. إلا أن هذا القول يتناقض كلية مع ما نعرفه من المصادر المعاصرة للمكتبة.

تؤكد المصادر القديمة الحقائق التالية:

١- بعد اكتمال بناء مدينة الإسكندرية، قام بطليموس الأول (سوتر) بتشييد الموسيون - المتحف - داخل الحي الملكي، ليكون مقراً لبعض شعراء اليونان الذين جاؤوا إلى عاصمته الجديدة للبحث والدراسة، كما شيد معبد السرابيوم

في حي راقودة المصري الذي كان يقع غربي المدينة، والذي كان موجوداً حتى قبل بناء الإسكندرية - منذ القرن السادس قبل الميلاد، وقد ذكر المؤرخ الروماني بلوتارخ أن بطليموس طلب من مانيتون الكاهن المصري، تنظيم طقوس العبادة في السرابيوم على الطريقة الفرعونية.

٢- قام بعد ذلك بطليموس الثاني (فيلاديلفوس) بتكوين المكتبة داخل معبد السرابيوم، وكلف الملك مانيتون بإعداد المجموعة الأولى من الكتب التي يجب وضعها بالمكتبة، وقام مانيتون بترجمة ما وجده في مكتبات المعابد الفرعونية وعمل نسخة يونانية لها، خصوصاً لمكتبات معابد عين شمس ومنف، ولديها شاهد معاصر رأى المكتبة في معبد السرابيوم قبل حرقها ٣٩١ م. بفترة وجيزة.

إذا كانت مكتبة الإسكندرية قد أنشئت في معبد السرابيوم الفرعوني القائم في حي راقودة المصري، وقام بتكوينها مانيتون الكاهن المصري الذي أقامها على كتابات من المعابد المصرية، يصبح من المستحيل على أتباع درويسون الادعاء بأنها كانت هيلينية؛ لهذا قرر الكلاسيكيون تغيير علامات الطريق، حتى يجعلوا الشخص الذي كان مسؤولاً عن تكوين المكتبة يونانياً، ثم غيروا موقعها فجعلوه خارج معبد السرابيوم الموجود بالحي المصري للمدينة.

وجد الكلاسيكيون فرصتهم في خطاب لشخص يدعى أريستس، يقول فيه إن ديميتريوس اليوناني - وليس مانيتون المصري - هو الذي كون المكتبة، ورد ذكر هذا الخطاب أولاً في كتابات المؤرخ اليهودي يوسيفوس خلال القرن الميلادي الأول (Antiqities، XII، ii)، بمناسبة الحديث عن الترجمة اليونانية للتوراة. هذا الخطاب وجهه المدعو أريستيس إلى أخيه، يدعي فيه أنه عمل مسؤولاً في بلاط بطليموس الثاني خلال القرن الثالث قبل الميلاد، ويتحدث عن ظروف ترجمة التوراة العبرية، يبدأ الخطاب بالحديث عن كيف أن ديميتريوس (الذي حسب قوله عينه بطليموس الثاني مديراً للمكتبة) نصح الملك بترجمة التوراة، وهو الذي كان مسؤولاً عن جمع

الكتب من كل أنحاء العالم لترجمتها ووضعها في مكتبة الإسكندرية، فبعث الملك بخطاب إلى الكاهن الأكبر في القدس، يطلب منه موافاته بنسخ من كتب توراة موسى الخمس. وسافر أريستيس للقاء الكاهن إليعازر في القدس، طالباً منه إرسال مجموعة من الكتبة اليهود إلى الإسكندرية للقيام بعمل الترجمة.

عندما قام الخبراء اللغويون بفحص خطاب أريستيس هذا ودراسته، تبين لهم أنه خطاب مزور. وكان أول من أدرك تزوير الخطاب في سنة ١٦٨٤ هو هامفري هودي، الذي أوضح أن الخطاب لا يعود إلى عهد بطليموس الثاني وإنما كتب في تاريخ لاحق. كما تمكن هودي من دراسة اللغة المستخدمة في كتابة الخطاب للتوصل إلى أن كاتبه كان يهودياً أراد أن يبين أهمية كتابات اليهود، حيث قام البطالمة بترجمتها والاحتفاظ بها في مكتبتهم. كما لاحظ هودي وجود أخطاء تاريخية في الخطاب، حيث إن بطليموس الثاني لم يستخدم ديميتريوس اليوناني ضمن حاشيته، بل قام بنفيه بمجرد اعتلائه العرش ثم مات ديميتريوس في منفاه بعد فترة وجيزة، فلا يعقل أن يكون هو المسؤول عن المكتبة في عهد هذا الملك. ومنذ القرن السابع عشر، أجمع الباحثون على قبول ما توصل إليه هودي معتبرين أن خطاب أريستيس هذا مزوراً منحولاً، ليست له أهمية تاريخية.

ورغم اعترافهم بأن خطاب أريستاس مزوراً، فقد استند إليه الباحثون الكلاسيكيون فيما يتعلق بزعمهم أن ديميتريوس اليوناني هو الذي كون مكتبة الإسكندرية. وهذا هو نفس ما فعله الباحث الكلاسيكي المصري الدكتور مصطفى العبادي: "لا يوجد أي شك في أن ديميتريوس هو الذي اقترح على سوتر (بطليموس الأول) فكرة إنشاء مركز بحثي كبير في الإسكندرية ... به مكتبة وجامعة."(١)

(1) Mostafa El Abbadi, The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, UNESCO, Paris, 1990, p. 81.

كان ديميتريوس حاكماً لأثينا ولما سقط حكمه هرب إلى الإسكندرية بعد عشر سنوات من طرده من المدينة، حوالي ٢٩٧ قبل الميلاد. رحب به بطليموس الأول وعينه واحداً من مستشاريه، إلا أن اسمه لم يرد ضمن قائمة المشرفين على المتحف أو المكتبة. ومع هذا فقد أصر الباحثون الكلاسيكيون على أن ديميتريوس جلب مكتبة أرسطو الخاصة، لتكون نواة مكتبة البطالمة في الإسكندرية. وعندما أدركوا صعوبة إثبات هذه الفرضية حيث إنه من المؤكد أن بطليموس الثاني تخلص من ديميتريوس بمجرد جلوسه على العرش، قرروا نسبة إنشاء المكتبة إلى بطليموس الأول بدلاً من الثاني. ورغم أن اسم بطليموس الثاني هو الذي ورد في خطاب أريستس المزور نفسه الذي اعتمد عليه الكلاسيكيون، فقد اختاروا بطليموس الأول مؤسساً للمكتبة لعلمهم استحالة وجود ديميتريوس في بلاط بطليموس الثاني.

يؤكد يوسيفوس - المصدر الذي تحدث عن خطاب أريستس - أن فيلاديلفوس (بطليموس الثاني)، وليس سوتر (بطليموس الأول)، هو الذي أمر بترجمة كتب التوراة إلى اليونانية:

"بعد أن حكم الإسكندر ١٢ سنة، وحكم سوتر ٤٠ سنة، أخذ فيلاديلفوس المملكة المصرية لمدة أربعين سنة. هو الذي أنتج الشريعة (التوراة) وأطلق سراح أولئك (اليهود) الذين جاؤوا من القدس إلى مصر حيث استعبدوا هناك، وكانوا ١٢٠ ألفاً."[1] وهذا هو ما يؤكده زكي شنودة في الجزء الأول من موسوعة تاريخ الأقباط: "ترجم العهد القديم إلى لغات كثيرة، وكانت أول ترجمة له هي الترجمة السبعينية من العبرية إلى اليونانية، وقد نهض بها ٧٢ عالماً من علماء اليهود بالإسكندرية حوالي عام ٢٨٢ قبل الميلاد، بأمر من بطليموس فلاديلفيوس". (صفحة ٩٣)

(1) Antiquities of the Jews, xii. 2.

وباستثناء الأب الروماني إيرينيوس، فقد أجمعت المصادر الكلاسيكية القديمة على أن بطليموس الثاني هو الملك الذي أمر بترجمة الكتب التوراتية. إيرينيوس الذي عاش في القرن الميلادي الثاني، هو الوحيد الذي ذكر اسم بطليموس الأول في كتابه ضد الهراطقة (Against Heresies 3.21.2)، الذي استند إليه الباحثون في التاريخ الكلاسيكي لتأكيد نظريتهم بأن ديميتريوس هو الذي قام بتكوين المكتبة. لكن الأب إيرينيوس الذي عاش بعد حوالي خمسة قرون من إنشاء المكتبة، لم تكن لديه مصادر جديدة تخالف الروايات السابقة، وكل ما أراده هو التأكيد على أهمية الترجمة اليونانية للتوراة حتى ولو كان بها بعض الاختلاف عن النص العبري. ونحن نجد أن القديس أوجستين الذي عاش بعد ثلاثة قرون من إيرينيوس، ما زال يؤكد أن بطليموس الثاني - وليس الأول - هو الذي أمر بترجمة التوراة.

على كل حال، أنكر الباحثون الكلاسيكيون في العصر الحديث على بطليموس الثاني فضل قراره بترجمة التوراة، حتى يتمكنوا من الادعاء بأن مكتبة الإسكندرية كانت يونانية تدعيماً لرأي درويسون. يقول مصطفى العبادي: "بالرغم من التواتر التاريخي القوي لصالح بطليموس الثاني فيلاديفوس، فإن غالبية الباحثين الحديثين (بما في ذلك العبادي نفسه) يميلون إلى منح الفضل في إنشاء ... المكتبة الملكية لبطليموس الأول سوتر."(١)

موقع المكتبة

بعد أن قام الكلاسيكيون بتغيير تاريخ تكوين المكتبة، فنقلوه من عهد فلادلفيوس حوالي ٢٨٣ إلى عهد أبيه سوتر حوالي ٣٠٠ قبل الميلاد، قرروا تغيير موقعها كذلك، فقد ادعوا - دون أي دليل - أن المكتبة لم تكن داخل معبد السرابيوم بالحي المصري، بل كانت في الموسيون (المتحف) بالحي الملكي. والسبب الذي

(1) The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, Mostafa El Abbadi, p. 81.

جعلهم يفعلون ذلك هو أن المتحف كان مقراً لشعراء اليونان، داخل الحي الملكي. يقول الباحث الكلاسيكي أوجست هنري كوت: "كان المتحف يعتبر كجامعة لهيلاس (اليونان) أو للعالم الهيليني... فهذا كانت مكتبة الإسكندرية الشهيرة... هنا... وضعت آلاف المخطوطات التي تحتوي على حكمة ومعارف ومعلومات جمعتها عبقرية الشعوب الهيلينية."(١)

إلا أن أوجست موت لم يذكر لنا المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات، لأن هذه الادعاءات ليس هناك من المصادر القديمة ما يدعمها. وكما قال الباحث البريطاني في الكلاسيكيات، السير بورتلاند ماهافي: "كل الكتابات الحديثة في هذا الموضوع (عبارة عن) تخمين أدبي."(٢)

لم يتم تكوين مكتبة الإسكندرية في المتحف، بل في معبد السرابيوم. فالمتحف الذي بناه بطليموس الأول ضمن الحي الملكي، خصصه لمعبودات الميوز التسع عند اليونان، اللاتي يشرفن على الشعر والموسيقى ويلهمن بالوحي الشعراء والفنانين. ودعا الملك حوالي مائة من شعراء مقدونيا واليونان للمجيء إلى الإسكندرية، حيث يعيشون في الموسيون متفرغين لعملهم الإبداعي. وقد كتب الكاتب الجغرافي استرابو الذي زار الإسكندرية سنة ٢٥ قبل الميلاد، بعد خمس سنوات من سقوطها في يد الرومان: "تحتوي المدينة على مناطق جميلة جداً والقصور الملكية، ... والمتحف هو أيضاً جزء من القصور الملكية، له ممشى عام ومنطقة بها مقاعد ومنزل كبير، فيه قاعة الأكل المشتركة لرجال التعليم الذين يشتركون في المتحف. وهذه الجماعة – ليست فقط تشارك مشاعة في الملكية – بل لها كذلك كاهن مسؤول عن المتحف، الذي كان الملوك (البطالمة) يعينونه في السابق، والآن يعينه قيصر."(٣)

(1) Alexandrian Poetry, Translated by James Loeb, London, William Heinemann Ltd., 1931, p. 70-71.

(2) The Empire of the Ptolemies, J. P. Mahaffy, p. 92.

(3) Geography, Strabo, 17.I.8.

هذا هو الوصف الذي ورد في كتابات سترابو عن المتحف، عبارة عن منزل تسكنه جماعة من رجال التعلم للتفرغ لدراساتهم، وكان نزلاء المتحف - إلى جانب الإقامة المجانية والطعام المجاني - يتلقون معاشاً من الملك يستثنى من دفع الضرائب. فليس هناك أي ذكر مباشر أو غير مباشر لا عن كتب ولا عن مكتبة في المتحف. كما لا يوجد أي مصدر قديم واحد معاصر للمكتبة، يتحدث عن وجودها داخل المتحف. وهذا شيء طبيعي، حيث كان مكان المكتبة في مصر القديمة يقع دائماً داخل المعبد. وهذا تقليد استمر حتى في العصر الإسلامي حيث كان موقع المكتبة يوجد داخل المسجد. ولدينا معلومات تؤكد أن المكتبة التي تم إحراقها سنة ٣٩١ للميلاد، كانت تقع داخل معبد السرابيوم. وقد شاهد هذه المكتبة المؤرخ أميانوس مارسيللينوس، الذي زار الإسكندرية قبل وقت قصير من حرقها وكتب قائلاً عن السرابيوم : "رونقه على شكل لا يمكن للكلمات وحدها أن تعطيه حقه، لكن قاعاته الكبيرة ذات الأعمدة وثروتها من التماثيل التي تحاكي الطبيعة، والأعمال الفنية الأخرى تجعله، ... أروع بناء في العالم كله، وهو يحتوي على مكتبتين. لا يمكن تقدير قيمتهما."(١)

المكتبات الفرعونية

عندما أراد بطليموس الثاني إنشاء مكتبة الإسكندرية، تبع التقاليد المصرية القديمة في جعلها جزءاً من معبد المدينة في السرابيوم. وبالفعل، هناك العديد من الأدلة التي تؤكد أن المكتبة التي تم تدميرها قبل نهاية القرن الرابع الميلادي، كانت موجودة في هذا المعبد؛ فمنذ بداية تاريخ مصر القديم، كانت المعابد هي المكان الطبيعي الذي تنشأ فيه المكتبة "بيت اللوح" أو "بيت الختم"، كما تسميها المصادر الفرعونية. فكما كان المعبد الفرعوني هو مكان العبادة، فقد كان كذلك هو مركز النشاط الدراسي والإداري والطبي والقضائي، بل والفني كذلك. واستمر هذا

(1) Ammianus, The Later Roman Empire (XXII.16).

الوضع دون تغيير كبير طوال التاريخ المصري القديم، بل إنه استمر كذلك - خصوصاً في مجال الدراسة - حتى في أيام الدولة الإسلامية؛ لهذا كان من الطبيعي أن تنشأ مكتبة البطالمة كجزء من معبد العاصمة، في السرابيوم.

تحدث الكتاب اليونان الذين زاروا مصر في الأزمنة القديمة، عن وجود المكتبة في المعبد. وقد ذكر ديودورس الصقلي مكتبة شاهدها عند زيارته إلى مدينة طيبة - الأقصر - نقش اسمها فوق البوابة "دواء الروح"، كما تحدث ديودورس عن "مكتبة أوزيمانديس". وفي العصر الحديث تمكن الباحثون من التعرف إلى معبد بالقرب من الأقصر - يعود إلى القرن ١٤ قبل الميلاد - الذي كانت فيه المكتبة التي ذكرها ديودورس. وفي وصف رجل الآثار البريطاني، السير جاردنر ويلكنسون، عن "ممنونيوم" - يشير إلى غرفتين داخليتين على أن واحدة منهما كانت تحتوي على "المكتبة المقدسة". كما تحدث الفرنسي شامبليون عن مشاهدته لاسم منقوش على جانب إحدى هاتين الغرفتين "توت مخترع الحروف" و "الإلهة ساف رفيقته" مصحوبة بألقاب "سيدة الحروف" و "رئيس قاعة الكتب".

في القرن التاسع عشر، تمكن عالم الآثار الفرنسي أوجست ماربيت - ماربيت باشا - من الكشف عن مكتبة معبد دندرة بين الأنقاض. كما تم العثور على موقع المكتبة في معبد إدفو "بيت البردي"، وهو لا يزال في حالة جيدة. وفي إدفو وجدت صورة لوحة للكتابة محفورة فوق مدخل المكتبة، كما نقشت الكتابات على جدران غرفة المكتبة إلى جانب رموز للأدوات التي يستخدمها الكتبة. ومن الأشياء المهمة التي عثر عليها في هذه الغرفة، قائمة بأسماء الكتب منقوشة على الجدران تحت عنوان "قائمة للصناديق التي تحوي الكتب (المسجلة على) لفافات كبيرة من الجلد".

كانت الكتب تقسم إلى كتالوجات وقوائم، أحدها يتضمن أعمال السحر (التي هي بمثابة العلوم الطبيعية). أما في الإسكندرية فهناك عدة أعمال منسوبة إلى الكاهن مانيتون الذي كلفه ديميتريوس بتكوين مكتبة الإسكندرية: إيجيبتياكا، أو تاريخ

مصر الذي قسمه إلى أسرات، كتاب هرمس (توت إله المعرفة)، وملخص القوانين الطبيعية، أي مواد العلوم الطبيعية. وإلى جانب ما قدمه مانيتون للمكتبة من علوم المصريين القدماء، تم ترجمة كتب التوراة من العبرية لتوضع في المكتبة كذلك، كما جلب الملك كتباً من كل أنحاء العالم لترجمتها ووضعها بمكتبة الإسكندرية، وتم إحضار الكتب من بلاد بابل وفارس واليونان لتوضع في المكتبة، التي أصبحت أول مركز للبحث في العالم حيث تم استخدام مصادر متعددة جاءت من حضارات مختلفة، وكان الباحثون يناقشونها مع أساتذتهم من الكهنة كل يوم.

أدى وجود مصادر متنوعة من المعرفة في الموضوع الواحد - للمرة الأولى في التاريخ - موجودة في مكان واحد ومكتوبة بلغة واحدة، إلى جانب وجود باحثين جاؤوا من مختلف بلدان العالم للدراسة في موقع واحد (بالإسكندرية)، إلى إحداث أثراً كبيراً في حدوث قفزة عملاقة في تطور المعارف البشرية، فكان هذا هو الرينيسانس الأول، النهضة التي عرفها الإنسان والتي انعكست على جميع بلدان العالم القديم، حيث ظلت الإسكندرية ومكتبتها مركز العلم والدراسة لأكثر من ستة قرون. كما أدى تعدد المصادر في الموضوع الواحد إلى نشوء البحث وبالتالي التعليم الجامعي، حيث كان التعليم قبل ذلك يعتمد على مصدر واحد في كل بلد، وبالتالي يقوم على التلقين.

الزعم بوجود مكتبتين

في مواجهة الأدلة الدامغة بوجود المكتبة داخل معبد السرابيوم، لجأ الكلاسيكيون إلى القول بوجود مكتبتين في الإسكندرية وليس مكتبة واحدة، إحداهما في المتحف والأخرى في السرابيوم. ورغم عدم وجود مصدر معاصر واحد للمكتبة يدعم كلامهم، قالوا بوجود "المكتبة الابنة" في السرابيوم. وهذا القول ما هو إلا مجرد افتراض لا يوجد دليل يدعمه، كما لا يوجد توافق بين الكلاسيكيين أنفسهم على من يكون قد أنشأ المكتبة الابنة ولا على متى تم تكوينها. وفي الوقت

ذاته ذهب البعض إلى القول بأن هذه المكتبة الابنة كانت موجودة في بيرجامن في آسيا الصغرى، ثم جاء بها مارك أنتوني إلى الإسكندرية كهدية لكليوباترا.

ورداً على ما حاول الكلاسيكيون إثباته من الطبيعة اليونانية لمكتبة الإسكندرية، فقد تبين الآن بشكل قاطع أن مكتبة أرسطو لم تصل إلى عاصمة البطالمة في الإسكندرية، بل انتقلت بعد وفاته إلى خليفته في رئاسة مدرسة بيرِيباتيتيك التي كونها في أثينا. ثم أخذها القائد الروماني سولا الذي نهب أثينا في ٨٦ قبل الميلاد، وأتى بها بطليموس إلى روما حيث شاهدها سيسيرو في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول.

كما عثر الباحثون الآثاريون في العصر الحديث على بقايا أساسات معبد السرابيوم، الذي كان مقراً لمكتبة الإسكندرية أسفل عامود السواري. إذ تولى البريطاني ألان رو الذي كان مديراً للمتحف اليوناني الروماني القيام ببعض الكشوفات في موقع راقودة القديم، في عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ - عثر خلالها على ألواح الأساس. ففي موقع السرابيوم عثر ألان رو على مجموعتين من الألواح، تتكون كل منهما من عشرة، مصنوعة من الذهب والفضة والبرونز والخزف والزجاج، يرجع تاريخها إلى حكم بطليموس الثالث. نقشت الكتابات باليونانية على إحدى المجموعتين والهيروغليفية على الأخرى، تتحدث عن إعادة هذا الملك لبناء المعبد. كما كان قد عثر في الموقع ذاته على تمثال بالحجم الطبيعي لعجل أبيس، عند نهاية القرن ١٩، مصنوع من حجر البازلت الأسود. وتبين بقايا المعبد الطبيعة الفرعونية لطراز بناء السرابيوم، حيث عثر كذلك على عدد من التماثيل المصرية بعضها للكهنة. وتبين أن المنطقة كانت تتقاطع بطريق تحيط به أشكال أبي الهول، تم بناؤه أيام البطالمة.

وهكذا، خلافاً للاعتقاد الشائع، لم تكن مكتبة الإسكندرية هيلينية يونانية، بل كانت مكتبة عالمية بنيت على نواة من الكتابات الفرعونية. فقد كانت الإسكندرية

هي أول مدينة كوزموبوليتان - تسكنها أجناس مختلفة - في العالم، بنيت لتحقيق حلم الإسكندر الأكبر في تقريب الشعوب والأجناس. فهو قد أعلن نفسه ابناً لآمون في مصر، وتزوج روكسان ابنة إمبراطور الفرس، كما شجع جنوده للتزاوج من الأقوام التي عاشوا بينها. فهنا عاش - جنباً إلى جنب - المصريون والمقدونيون واليونان واليهود والعرب الأقباط والفينيقيون والليبيون والفرس والأفارقة. ورغم انتمائهم إلى أجناس متعددة، فقد عملوا سوياً لتحقيق أول نهضة حضارية - رينيسانس - في التاريخ.

كما كان معبد السرابيوم مركزاً عالمياً للعبادة والدراسة والحكمة. جمعت مكتبته نسخاً من جميع نواحي المعرفة، جاءت من مصادرها في بلدان الحضارات القديمة. هنا تمت دراسة توراة موسى وإنجيل المسيح وفلسفة هرمس، إلى جانب حكمة المصريين والبابليين القدماء - في مكان واحد وبلغة واحدة لأول مرة.

العصر القبطي

العصر القبطي هو الفترة التي تمتد بين نهاية حكم الفراعنة في ٣١ قبل الميلاد وبداية العصر الإسلامي في ٦٤١ ميلادية. ففي هذه الفترة صارت مصر وشعب مصر جزءاً من الإمبراطورية الرومانية لكنهم ظلوا مصريين، أي أقباط. صحيح أنهم في هذه المرحلة لم يكن لهم حكام منهم، لكن هذا لا يغير من كونهم أقباطاً. فكلمة قبطي هنا تعني "مصري" قبل أن تصبح بعد ذلك تعني "مسيحي مصري". وليس غريباً ألا يحكم المصريين حاكم مصري في ذلك العصر، ففي خلال العصر الإسلامي كذلك كان حكام البلاد من غير المصريين.

انتهى حكم الفراعنة لمصر مع موت كليوباترا السابعة عام ٣٠ قبل الميلاد، بعد حوالي ثلاثة آلاف عام، ومنذ ذلك التاريخ فقدت مصر كيانها السياسي المستقل، وصارت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، يتم تسيير أمورها عن طريق حاكم يرسله الإمبراطور ويكون مقره بالإسكندرية. ورغم استمرار التقاليد والعادات الفرعونية تحت الحكم الروماني، فقد جرت تغييرات كبيرة خصوصاً في مجالات الدين واللغة والفنون. ففي ظل السيطرة الرومانية ماتت الديانات القديمة تدريجياً، خصوصاً مع تحول المصريين إلى العقيدة المسيحية الجديدة التي انتشرت من الإسكندرية وحتى أسوان. وفي الوقت نفسه - رغم استمرار اللغة اليونانية كلغة البلاد الرسمية – بدأت كتابة مصرية جديدة في الظهور، تتمثل في اللغة القبطية التي حلت تدريجياً مكان الكتابات المصرية الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية القديمة. وفي ذات الوقت أتاح انهيار النظام الديني الفرعوني الفرصة لظهور أنواع جديدة من الفن المصري.

كان الفراعنة هم الذين يدعمون الكهنة والمعابد بالمال والعطايا والهبات، وكانت المعابد وكهنتها وحدها معفية من دفع الضرائب. لم يكن المعبد الفرعوني مقراً للعبادة فحسب، بل كان المدرسة والمكتبة والمستشفى والمحكمة ومركز الإدارة، كما كان هو من ينظم الاحتفالات والأعياد ويتوج الملوك ويشرف على دفن الموتى. ومع سقوط النظام الفرعوني وحلول نظم رومانية جديدة لحكم البلاد، لم يعد هناك من يحمي المعابد القديمة، أو يهتم بحالة التدهور التي ألمت بها. وبعد أكثر من ثلاثين قرناً من بدء الحضارة الفرعونية، اختفت الديانات القديمة تدريجياً مع ما يحيط بها من كائنات مقدسة، لتحل تدريجياً مكانها الديانة المسيحية التي احتفظت بالطقوس القديمة للعبادة.

تغيرت طريقة الكتابة عند المصريين من الهيروغليفية التي تقوم على الصور والأشكال - وما تبعها من تبسيطات في الهيراطيقية والديموطيقية - حيث تحولت إلى الكتابة الأبجدية. استخدمت الكتابة الجديدة حروف الأبجدية اليونانية، وأضافت إليها سبعة أحرف من الهيروغليفية. وفي مجال الفنون التشكيلية، اختفت الأشكال الفرعونية الجامدة المبنية على قواعد الرياضيات، لتحل مكانها أشكال واقعية تقترب من الطبيعة.

رغم ظهور هذه التغيرات في المجالات الثقافية تدريجياً منذ نهاية حكم الفراعنة، ومع إدراكهم للتغيرات التي حدثت في المجتمع المصري، يصر المؤرخون الأوروبيون على تحديد موعد متأخر لحدوثها عند نهاية الفترة الرومانية وبداية الفترة البيزنطية، بعد حوالي ثلاثة قرون من بداية التاريخ الميلادي. وبناء على ذلك فهم يحددون تاريخ اعتناق المصريين للمسيحية بالتاريخ الذي حددوه هم لظهور التغيرات الثقافية في المجتمع المصري. فعلى سبيل المثال، يربط هؤلاء الأوروبيون بين ظهور الترجمات القبطية لكتب العهد الجديد، واعتناق المصريين للمسيحية. وبناء على هذه التفسيرات الخاطئة تمت كتابة تاريخ المصريين، حتى أن الباحثين المصريين

أنفسهم راحوا يرددونها، دون فحص أو تمحيص للأدلة. يقول الباحث ماجد خليل: "مما لا شك فيه أن العصر القبطي يبدأ في القرن الرابع، عندما مرت مصر بتطورات دينية وأدبية واجتماعية قوية.... كما شاهد القرن الرابع نضوج القبطية كلغة أدبية. حيث تولى الباحثون والمترجمون القيام ببرامج على مجال كبير لترجمة الكتابات المقدسة اليونانية إلى اللغة الوطنية."[١]

ورغم أن بعض الباحثين بدؤوا في الأعوام الأخيرة يتحدثون عن "العصر القبطي"، فإنهم لا يتفقون فيما بينهم على تحديد زمن تاريخي محدد لهذا العصر: متى بدأ وما مدته وملامحه. وهذا يتطلب منا - إلى جانب عناصر أخرى - تحديد التاريخ الذي اعتنق فيه المصريون العقيدة المسيحية، وكيفية تطور اللغة القبطية.

القديس مرقص

من المتفق عليه تواتراً أن مرقص الإنجيلي هو الذي قام بتأسيس الكنيسة القبطية المصرية، وكان هو أول البطاركة في كنيسته التي أقامها في الإسكندرية. وقد ساد الاعتقاد منذ بداية التاريخ المسيحي على وجود تأكيد زيارة مرقص إلى مصر في كتابات العهد الجديد، وبخاصة في رسالة بطرس الأولى: "تسلم عليكم التي في بابل المختارة معكم، ومرقص ابني." (الأصحاح ٥ - الآية ١٣). وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن المقصود ببابل في هذه الآية ليس المدينة التي تحمل هذا الاسم في جنوب العراق، وإنما حصن بابلون بمصر، الذي كان يقع بالقرب من القاهرة الحديثة.[٢]

(1) An Historical Defenition for the Coptic Period, Procceedings of the Seventh International Congress of Coptic Studies, Leiden, 2000, edited by M. Immerzeel and J. Cn Der Vliet, Peeters, 2004, Los Angeles, p. 972-3.

(2) The Coptic Church, Rev. A. deVlieger, George Bridel & Editeurs, Lausanne, 1900, p. 18.

أما القصة التي تربط بين القديس مرقص ومدينة الإسكندرية، فقد وردت في كتابات الأبوين يوسيبيوس وجيروم، وكذلك في سير الشهداء. وأقدم المصادر التي تحدثت عن دور مرقص في تأسيس الكنيسة المصرية، كان هو يوسيبيوس أسقف مدينة قيصرية على الساحل الفلسطيني. ففي كتابه الشهير "تاريخ الكنيسة" الذي دونه حوالي سنة ٣١٠، كتب يوسيبيوس: "يقولون إن مرقص هذا كان أول من ذهب إلى مصر، ليدعو إلى الإنجيل... وأول من نظم كنائس الإسكندرية نفسها." (Eusebius) HE 2.16.1. ويحدد يوسيبيوس تاريخ وصول مرقص إلى الإسكندرية في العام الثالث لحكم الإمبراطور الروماني كلوديوس، أي ٤١-٤٢ أو ٤٣-٤٤ للميلاد.

وتتفق المصادر المصرية لتاريخ الكنيسة القبطية مع يوسيبيوس، على دور مرقص في تكوين كنيسة الإسكندرية. إلا أن المؤرخ المصري ساويرس بن المقفع الذي كان أسقفاً للأمونيين وكتب "تاريخ أساقفة الإسكندرية" ومات في ٩٨٧، يحدد تاريخاً متأخراً بعض الشيء لوصول مرقص إلى الإسكندرية: "في العام الخامس عشر بعد صعود المسيح، (أي حوالي ٤٨م)، أرسل بطرس المقدس القديس مرقص... إلى مدينة الإسكندرية ليعلن الأنباء الطيبة (الإنجيل) هناك."[1] ويعتبر كتاب تاريخ الأساقفة المنسوب إلى ساويرس، تجميعاً لعدة مراجع عن تاريخ الكنيسة، جاءت من مصادر متعددة، تم تجميعها وترجمتها إلى العربية بعد ذلك في القرن الحادي عشر.

رغم أن يوسيبيوس لا يذكر المصادر التي اعتمد عليها في قصته عن مجيء مرقص إلى مصر، فقد حاول الباحثون في العصر الحديث التعرف إلى ما إذا كان قد نقل قصته عن مصدر سابق. ولما كان يوسيبيوس قد استخدم تعبير "يقولون" عند حديثه عن مرقص، فقد استنتج البعض أنه نقل أقوالاً أو كتابات كانت موجودة من

(1) History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, p. 140.

قبل. ويؤكد هبلموت كوييستر - أستاذ دراسات التاريخ الأول للمسيحية في جامعة هارفارد الأمريكية - مصداقية الرواية المتواترة عن مرقص:

"ليس هناك شك كبير في وصول البعثة المسيحية إلى الإسكندرية خلال القرن الميلادي الأول... إذ سمى يوسيبيوس مرقص على أنه أول داعية مسيحي في مصر، متفقاً في ذلك مع الروايات الكنسية الأخرى، وهو مؤسس كنيسة الإسكندرية وأول أسقف وشهيد لها... وفي الحقيقة من غير المعقول أن تكون البعثة المسيحية قد تخطت الإسكندرية لعقود من الزمن. ولا بد أن واحدة من بين العديد من الجماعات (المسيحية) هناك، وجدت مبكراً في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول. وقد يكون لظهور مرقص كحارس للإسكندرية بعض الجذور في التاريخ. فمن المؤكد أن (كتاب) "أعمال مرقص"، الذي ظهر للمرة الأولى في القرن الرابع، قد استخدم روايات أكثر قدماً... وما استطاع يوسيبيوس الإبلاغ عنه (في قصة مرقص) يدل على أن الروايات التي كانت متاحة له (في القرن الرابع) كانت، إما صامتة عن تاريخ المسيحية المبكرة في مصر وإما - وهذا هو الأكثر احتمالاً - (هذه الروايات) تعارضت مع تركيبته التاريخية للبدايات الأورثوذوكسية (المستقيمة) في كل مكان. وهنا يملك المؤرخ الحديث ميزة على يوسيبيوس، فمن ناحية حفظ العديد من الآباء - وبخاصة كليمنت السكندري وأوريجون - أكثر مما كان يوسيبيوس راغباً في تضمينه في عمله التاريخي. ومن ناحية أخرى فقد أظهرت المخطوطات التي اكتشفت في مصر معلومات قيمة كثيرة، من بينها كتابات عديدة لم يشأ يوسيبيوس الاعتراف بها. فزيادة على العدد الكبير من البرديات اليونانية والقبطية من مصر، فإن أهم الكشوفات هي مكتبة نجع حمادي الغنوصية (العارفية) القبطية."(١)

(1) History and Literature of Early Christianity, Helmut Koester, Walyer De Gruyter, New York-Berlin, 1982, p. 226-8.

بل إن كوييستر يعتقد أن الدعوة المسيحية قد تكون وصلت من الإسكندرية إلى روما، قبل منتصف القرن الميلادي الأول.(1)

كما لاحظ الباحثون الحديثون أن الرواية التي تتحدث عن إنشاء القديس مرقص لكنيسة الإسكندرية، كانت منتشرة خلال السنوات الأولى للكنيسة المسيحية، وقد ذكرها القديس جيروم (De Vir. Illust.' viii')، وإبيفانيوس (Hær;." Li, 6") كما وردت في النظام الرسولي (VII, xlvi) والعديد من المصادر المتأخرة.

ليست هناك معلومات تفصيلية عن نشاط مرقص في مصر، لا في رسالة بطرس الأولى ولا في تاريخ يوسيفوس. إلا أن تاريخ الأساقفة الذي سجله ابن المقفع، يحتوي على معلومات كثيرة عن حياة مرقص في مصر جاءت من مصدر آخر. هذا المصدر المعروف باسم "أعمال مرقص"، يحتوي على تفاصيل أكثر عن نشاطات القديس في مصر وتأسيسه لكنيسة الإسكندرية، كما يتضمن قصة استشهاده في هذه المدينة. وبينما لا توجد لدينا معلومات مؤكدة عن تاريخ كتابة "أعمال مرقص"، فهناك دلائل تشير إلى أنها ترجع إلى القرن الرابع.

تحكي القصة التي وردت في هذا الكتاب، الذي كتب أولاً باليونانية والقبطية ثم ترجم إلى لغات أخرى: أنه عندما ذهب الرسل في إرسالياتهم - بعد صعود المسيح - تسلم مرقص مصر وما يحيط بها من بلدان، لتكون من نصيبه. وفي البداية ذهب مرقص إلى سيرين (في ليبيا)]وهناك رواية أخرى تجعله ليبي الأصل[حيث قام بأعمال ومعجزات كثيرة، ودعا إلى العقيدة المسيحية. وبينما هو في سيرين، شاهد مرقص رؤيا تدعوه إلى الذهاب إلى الإسكندرية. وفي اليوم التالي وصل مرقص إلى

(1) History and Literature of Early Christianity, Helmut Koester, Walyer De Gruyter, New York-Berlin, 1982, p. 227.

الإسكندرية في مكان يسمى منديون. وفي أثناء عبوره بوابة المدينة، قطع سير صندله فبحث عن إسكافي ليصلحه. وبينما كان الإسكافي يعمل لإصلاح الصندل، جرح يده اليسرى وصرخ من الألم (قائلاً): "الإله واحد". (عندئذ) أشفى مرقص يد الإسكافي، باسم يسوع المسيح، وحتى يظهر شكره لمرقص دعاه الإسكافي إلى الأكل في بيته، حيث بدأ مرقص يبشر بإنجيل يسوع المسيح ابن الرب، ويخبر الرجل بالنبوءات التي تحدثت عن (مجيء) المسيح. فقال الرجل إنه – ولو كان يعلم عن الإلياذة والأوديسة (للشاعر هومر) والأشياء الأخرى التي يتعلمها المصريون منذ طفولتهم – لا يعلم شيئاً عن هذه النبوءات.

بعد فترة اهتدى الإسكافي إلى العقيدة المسيحية، وتم تعميده هو وكل أهل بيته والعديد من الناس الآخرين. وكان اسم هذا الرجل (الإسكافي) أنانياس (روايات أخرى تسميه أنيانوس). أخيراً فكر بعض رجال المدينة من الوثنيين، الذين غضبوا من هذا التحول إلى المسيحية، في قتل مرقص فقرر مرقص الإنجيلي ترك الإسكندرية والعودة إلى بنتابوليس في شمال أفريقيا. وقبل مغادرته الإسكندرية قام مرقص برسم أنانياس أسقفاً ومعه ثلاثة قسس، هم ميلايوس وسابينوس وكريدو. وعاد مرقص إلى الإسكندرية بعد عامين فوجد أن الجماعة المسيحية في المدينة قد نمت، وتم بناء كنيسة في مكان يسمى بوكولو بالقرب من البحر. إلا أن الوثنيين في المدينة كانوا غاضبين على مرقص لكل ما حدث من نجاح للجماعة المسيحية. وفي ذلك العام ٦٨ م. جاء يوم احتفال عيد القيامة موافقاً لمهرجان الإله المصري سرابس (من ٢٤ أبريل). فدخلت جماعة متحرشة من الوثنيين إلى الكنيسة، أمسكت بمرقص ووضعت حبلاً حول عنقه، ثم جرته في شوارع الإسكندرية، ووضعوه داخل السجن تلك الليلة. وخلال الليل تلقي مرقص كلاماً مشجعاً في سجنه، فقد زاره ملاك في البداية ثم زاره المسيح نفسه. وفي صباح اليوم التالي (٢٥ من أبريل) أخذت جماعة الغوغاء مرقص من السجن، وجروه في شوراع المدينة ثانية إلى أن مات. بعد

ذلك أعد الغوغاء ناراً في المكان الذي يسمى أنجليو، وحاولوا إحراق جسد مرقص. وجاءت عاصفة شديدة فخافت الجموع الوثنية وفرت في رعب. وفي النهاية أخذ المؤمنون جسد مرقص، فأعادوه إلى الكنيسة لدفنه هناك في الضواحي الشرقية للإسكندرية.

انتشرت قصة استشهاد مرقص هذه في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وبخاصة في إيطاليا، وجاء العديد من المسيحيين إلى مصر للحج وزيارة قبر مرقص الإنجيلي شرقي الإسكندرية:

"مما لا شك فيه أن أهم موقع مقدس عند المسيحيين الأوائل في الإسكندرية، كان في بوكولو. وبحسب ما ورد في 'أعمال مرقص'، كان للمسيحيين هناك أماكنهم للعبادة حيث مات القديس وتم دفنه. هنا أقيمت كنيسة الشهادة للقديس مرقص، التي وجدت الروايات على قيامها منذ أواخر القرن الرابع. وهنا كانت الكنيسة التي خدم فيها آريوس كقس في بداية القرن الرابع، ويشير إليها إبيفانيوس باسم 'كنيسة بوكالس'، التي اعتبرها شكلاً مغلوطاً - أو شكلاً آخر - لبوكولوس ... وليس هناك شك في أن تذكار القديس مرقص كان موجوداً في الجزء الشمالي الشرقي للمدينة، (في الحي الشرقي - بجانب البحر، أسفل الجرف)، ربما بالقرب من موقع كلية القديس مرقص الحالية التي يديرها الإخوة المسيحيون. وفي القرن الرابع عندما بدأ تسجيلنا كانت المنطقة المذكورة تقع خارج المدينة، مكاناً لرعي الأبقار. ولكنه (قبل ذلك) في القرن الأول كان يقع في منطقة الجوار اليهودية التي تحدث عنها يوسيفوس (المؤرخ اليهودي)."(١)

(1) Early Christianity in Egypt, Birger A. Pearson, in The Roots of Egyptian Christianity, Editors: Birger A. Pearson & James E. Goehring, Fortress Press, Philadelphia, 1986, p. 153.

وقصة رحلة مرقص إلى مصر واستشهاده في الإسكندرية، حفظتها أجيال متعاقبة من الجماعة القبطية المسيحية التي لا تزال تحتفل بشهادة القديس مرقص في ٢٥ من أبريل حتى يومنا هذا. وما يدعم قصة اسشهاده في الإسكندرية، هو أن الكهف الذي دفن فيه كان في ذلك الوقت جزءاً من المدينة، ثم أصبح عند كتابة "أعمال مرقص" مكاناً مهجوراً ومرعى للأبقار خارج المدينة. يقول الباحث المصري زكي شنودة: "لما رأى الوثنيون بوادر نجاح الرسول في بشارته، حنقوا عليه وراحوا يتربصون له ليفتكوا به. ولكنه واصل أداء رسالته غير عابئ بما يدبرون، فأقام إنيانوس أسقفاً ورسم معه قسوساً وشمامسة، وشيد أول كنيسة بالإسكندرية ووضع قداساً للصلوات هو أصل القداسات المعمول بها عند الأقباط حتى اليوم، وأسس المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية وأقام العلامة يسطس رئيساً لها. ثم سافر إلى أفسس... (و) عاد إلى مصر واستأنف عمل الكرازة جائلاً بكل أنحاء البلاد يبشر بالمسيح. فلما كثر عدد المؤمنين وتوطدت دعائم الكنيسة التي أسسها، تغلغل الحقد في قلوب الوثنيين عليه وأضمروا الغدر به. حتى إذا كان عيد القيامة في ٢٦ من أبريل سنة ٦٨ ميلادية، وهو يحتفل بالعيد في الكنيسة مع شعبه هجموا عليه ووضعوا حبلاً في عنقه وراحوا يجرونه في طرقات المدينة وساحاتها حتى تمزق لحمه ونزف دمه. وما فتئوا يفعلون به هكذا حتى المساء فألقوا به في السجن. ثم في اليوم التالي عادوا به وراحوا يجرونه كذلك حتى أسلم الروح. وحينئذ تقدم المسيحيون وأخذوا جسده وكفنوه ووضعوه في تابوت ونحتوا له قبراً في الكنيسة ذاتها، ودفنوه فيه.

وقد بقي جسد مرقص مدفوناً بالإسكندرية حتى سرقه بعض البحارة البندقيين (الإيطاليين) في القرن التاسع وأخذوه إلى بلدهم، ما عدا الرأس فقد بقي

في مصر واختصت به الكنيسة القبطية وحفظته بالكنيسة المرقصية الكبرى بالإسكندرية، ولم يزل بها حتى اليوم."[١]

بعد استشهاد القديس مرقص أصبح مكان الدفن هذا نفسه مزاراً للحجاج الرومان لحوالي ثمانية قرون، حتى قام تجار فينيسيا الإيطالية بسرقة جسد مرقص وتهريبه إلى مدينتهم سنة ٨٢٨.

(١) زكي شنودة، موسوعة تاريخ الأقباط، الجزء الأول، ١٩٦٨، صفحتي ٩٨ و ٩٩.

خلفاء مرقص

عين مرقص أول خلفائه في الكنيسة التي أقامها في الإسكندرية قبل مغادرته إلى ليبيا في سنة ٦١ قبل الميلاد. ويتفق الأب يوسيبيوس في كتابه مع ما جاء في "أعمال مرقص" من أن مرقص قام بتعيين إنيانوس - الإسكافي - ليكون أول خليفة له في رئاسة الكنيسة. واعتماداً على التاريخ الذي نشره جوليوس أفريكانوس في عام ٢٢١، قدم يوسيفوس قائمة بأسماء تسعة أساقفة آخرين خلفوا القديس مرقص.

ويتفق التاريخ المكتوب للكنيسة القبطية تماماً مع يوسيبيوس، على قائمة الأساقفة: "مرقص ... عين إنيانوس أسقفاً للإسكندرية، كما عين ثلاثة كهنة وسبعة شمامسة. عين هؤلاء الأحد عشر لخدمة وراحة الإخوة المؤمنين."(١)

إلا أن آباء روما لم يتفقوا مع قائمة يوسيبيوس - ولا مع تاريخ الكنيسة القبطية - فيما يختص بالأسماء التسعة الأوائل. فبالنسبة إلى روما، لم يبدأ تاريخ الكنيسة القبطية قبل عصر الأسقف ديميتريوس (١٩٠-٢٣٣م) والسبب في هذا يرجع في أن روما اعتبرت الجماعات المسيحية المصرية هرطوقية، وأن ديميتريوس كان أول الأساقفة المصريين الذي يطبق الرأي المستقيم - أورثوذوكس - كما فهمته روما.

وفي العصر الحديث اتفق بعض الباحثين الغربيين مع روما العصور الوسطى، ليس على إنكار الأساقفة المصريين التسعة الأوائل فحسب، بل ذهبوا أبعد من هذا فأنكروا ما تم الاتفاق عليه من أن مرقص هو الذي أقام الكنيسة المصرية. ويدعي هؤلاء الباحثون أن قصة إقامة مرقص لكنيسة الإسكندرية، نشرتها الكنيسة القبطية في تاريخ لاحق، بادعائها شخصية إنجيلية لتعطي نفسها شرعية تاريخية.

---

(1) History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, 104, p. 144-1445.

هل كانت قصة قدوم القديس مرقص إلى الإسكندرية، مجرد ادعاء لكنيسة مصر القبطية قدمته في القرن الرابع للميلاد، أم أن الباحثين الغربيين هم الذين يحاولون عمداً تجاهل حقائق ثابتة تاريخياً، حتى يضعفوا من أهمية دور الكنيسة المصرية في التاريخ الأول لانتشار العقيدة المسيحية؟

تشرح لنا الباحثة البريطانية باربرا واترسون فتقول: "يعطي يوسيبيوس قائمة بأسماء أساقفة الإسكندرية الذين جاؤوا بعد القديس مرقص، إلا أن العديد من السلطات ترفض قبول صحة الأساقفة التسعة الأوائل في قائمته، جزئياً بسبب أن سلطتهم تقع بدقة فائقة في مدد كل واحدة منها ١٢ سنة."[(١)] ومع هذا فالسبب الذي تدعيه باربرا – في أن مدد الأساقفة التسعة متساوية، ١٢ سنة لكل منهم – ليس صحيحاً، فنحن لا نجد في قائمة يوسيبيوس سوى اثنين فقط قد حكم كل منهما ١٢ سنة، وهذا يتضح من القائمة:

إنيانوس ٢٢ سنة، أبيليوس ١٣ سنة، كريدون ١١ سنة، بريموس ١٢ سنة، جستوس ١٠ سنوات، إميومينس ١٣ سنة، سيلاديون ١٤ سنة، أجريبينوس ١٢ سنة، جوليان ١٠ سنوات و ديميتريوس ٤٣ سنة.

ويعطينا والتر باور (وهو مؤرخ بارز في تاريخ الكنيسة) سبباً آخر لاعتبار الكنيسة المصرية الأولى غير تاريخية، في كتابه عن الرأي المستقيم والهرطقة في المسيحية الأولى: "يوسيبيوس... يتتبع خلافة عشرة أساقفة من مرقص وحتى حكم الإمبراطور كومودوس (١٨٠-١٩٢). لكن هذه القائمة التي يدين بها لسكساس جوليوس أفريكانوس، تعمل على جعل الصمت الذي يخيم على أصول (الكنيسة المصرية) أكثر بلبلة. فلا توجد أية قصص مصاحبة (للقائمة)؛ ولهذا فكل ما يمكن تجميعه في أحسن الأحوال، أقل من لا شيء. فالأسماء العشرة الأولى (بعد مرقص

(1) Coptic Egypt, Barbra Watterson, Scottish Academic Press, 1988, p. 24.

رفيق الحواريين) هي الآن وستظل بالنسبة إلينا، مجرد صدى ونفخة من الدخان، وهم تكاد لا تمكنها إلا أن تكون كذلك."[1]

باور إذاً يعتبر أن القائمة التي ذكرها يوسيبيوس لأساقفة الكنيسة القبطية العشر الأوائل، هي مجرد 'صدى ونفخة من الدخان'. أما السبب الذي اعتمد عليه باور للتوصل إلى هذه النتيجة الغريبة، فهو أغرب: عدم وجود تفاصيل عن حياة الأساقفة تصاحب القائمة. ورغم أننا نجد معلومات أكثر عن هؤلاء الأساقفة في كتاب "أعمال مرقص"، على الأقل فيما يتعلق بإنيانوس وخلفائه المباشرين، فإن هذا لا يبدو كافياً بالنسبة إلى باور. وبناء عليه يستنتج باور أن قائمة الأساقفة ليست سوى انتحال قام به ديميتريوس في بداية القرن الثالث ليعطي تاريخاً مزوراً للكنيسة:

"أخذ يسيبيوس قائمة أساقفة الإسكندرية من تاريخ أفريكانوس، ومن المصدر الذي أخذ منه هذا الأخير (أفريكانوس) وهو العالم الكبير رئيس المدرسة (اللاهوتية) هيراكلاس وأسقفه ديميتريوس. وعلى هذا، كان يعد في الإسكندرية في ذلك الوقت فرعاً من اللاهوتيين الذين حاربوا الهراطقة وحاول تكذيبهم، عن طريق اللجوء إلى (اختلاق) خلافة غير مقطوعة من الأساقفة صحيحي الرأي (أورثوذوكس)."[2]

ويشارك العديد من مؤرخي الكنيسة باور فيما ذهب إليه: "لا يقدم يوسيبيوس معلومات أخرى عن إنيانوس أوعن كيفية تسميته خليفة لمرقص. قصة تعيين إنيانوس أسقفاً (كما وردت) في "أعمال مرقص"، هي محاولة لإظهار وتأكيد الخط

(1) - Orthodox and Heresy in Earliest Christianity, translated by a team from the Philadelphia Seminar of Christian Origins, Edited by Robert A. Kraft and Gehard Krodel, Sigler Press, Mifflintown, PA. USA, p. 45.

(2) - Orthodox and Heresy in Earliest Christianity, translated by a team from the Philadelphia Seminar of Christian Origins, Edited by Robert A. Kraft and Gehard Krodel, Sigler Press, Mifflintown, PA. USA, p. 55.

المباشر بين القديس مرقص وخلفائه كأساقفة للإسكندرية... وبهذه الطريقة يكون لقاء مرقص مع إنيانوس في أعمال مرقص، بهدف (اختلاق) "أسطورة التكوين" التي ساعدت الكنيسة المصرية القديمة على تفهم تاريخها الخاص."[1]

ما يريد باور والآخرون الوصول إليه، هو أن الأسقف ديميتريوس وزملاءه في المدرسة اللاهوتية، اخترعوا خلال القرن الثالث قصة زيارة القديس مرقص للإسكندرية واستشهاده هناك - حتى يعطوا طابعاً أورثوذوكسياً غير حقيقي لكنيستهم. عندئذ قاموا بتأليف قائمة من تسعة أساقفة ليكونوا خلفاء لمرقص، دون أية حقيقة تاريخية لهذه القصة. وحتى يمكن لمؤرخي الكنيسة الحديثين اتهام الكنيسة المصرية بالهرطقة وعدم التاريخية، فلا بد لهم أن يكونوا قد قارنوا بين هذا التاريخ وتاريخ كنائس أخرى يعتبرونها تاريخية وغير مهرطقة. فمن هي تلك الكنيسة التي حدثت مقارنة تاريخ كنيسة الإسكندرية مع تاريخها؟ هل هي كنيسة روما؟

حتى يكون في مقدورنا تفهم رفض آباء روما قصة يوسيبيوس عن كنيسة الإسكندرية، علينا الرجوع إلى تاريخ العلاقة بين روما والإسكندرية. فبعد هزيمة الرومان لمصر سنة ٣٠ قبل الميلاد، بينما صارت روما هي العاصمة السياسية للإمبراطورية الرومانية، ظلت الإسكندرية هي العاصمة الثقافية والدينية فيها. وفي بداية التاريخ المسيحي، كان أسقف الإسكندرية هو الوحيد الذي حصل على لقب "بابا"، وكما قال سان جريجوري النزياني: رئيس كنيسة الإسكندرية كان هو رأس العالم. "وللمرة الأولى في مصادرنا منح أسقف الإسكندرية لقب 'بابا (باباس في اليونانية) قبل خمسين عاماً من منح أسقف روما اللقب نفسه."[2]

(1) - The Early Coptic Papacy, Stephen J. Davis, The American University in Cairo Press, Cairo, New York, 2004, p. 12.

(2) - The Early Coptic Papacy, Stephen J. Davis, The American University in Cairo Press, p. 27.

ومما يؤكد قدم الكنيسة المسيحية في مصر، هو أن المسيحيين الأوائل لم يسافروا للحج في روما أو القدس أو بيت لحم، بل سافروا إلى مصر التي ظلت هي الأرض المقدسة لديهم، حتى نهاية القرن الرابع. وبمجرد ما أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية لروما، عندما منح الإمبراطور قسطنطين الأكبر سلطة فرض العقيدة الجديدة على الشعوب التابعة له، كانت الكنيسة المصرية هي أول من تم عقابه.

لم يستطع آباء روما قبول تصريحات يوسيبيوس، التي تعطي كنيسة الإسكندرية مركز الصدارة في الحركة المسيحية، حتى قبل روما نفسها. فيوسيبيوس يقول بصراحة إن كنيسة الإسكندرية سبقت روما في نشأتها، حيث يذكر في كتابه الثاني قيام الكنيسة المرقصية حوالي ٤٣ ميلادية. وهو يذكر في الكتاب نفسه تعيين إنيانوس أسقفاً في الإسكندرية - خلفاً لمرقص - في العام ٦١، بينما لا يذكر يوسيبيوس كنيسة روما للمرة الأولى إلا لاحقاً في كتابه الثالث. وحتى هنا فهو لا يتحدث عن روما، إلا من خلال حديثه عن كيردون أسقف الإسكندرية الثالث عام ٩٨، حيث يتعاصر حكمه مع حكم كليمنت أسقف روما. فبينما تم تعيين إنيانوس خلفاً لمرقص في الإسكندرية عام ٦١، فقد تم تعيين لينيوس خليفة لبطرس في روما بعد ذلك بست سنوات في عام ٦٧.

إذا ما كان باور يعتبر قائمة أساقفة الإسكندرية مجرد صدى ونفخة دخان لعدم وجود تفاصيل عن هؤلاء الأساقفة في تاريخ يوسيبيوس، فماذا عن أساقفة روما؟ هنا نجد قائمة أسماء أساقفة روما لا تحتوي على تفاصيل عن أي منهم، تماماً مثل قائمة الإسكندرية. وبينما هناك اتفاق شبه كامل في المصادر القديمة عن القائمة المصرية، فهناك تضارب واختلافات كثيرة فيما يتعلق بقائمة روما. ورغم ما نعرفه من رسالة بولس الرسول إلى الرومان في عام ٥٨، فنحن لا نعرف أي شيء عن بداية الكنيسة في روما.

وبحسب ما ذكره المؤرخ الكنسي البروتستنتي لورين بويثر: "يدعي الرومانيون وجود خط غير مكسور للخلافة، منذ الأسقف الأول المزعوم بطرس، وحتى البابا الحالي... وقد تمت إعادة تنقيح القائمة عدة مرات... وببساطة ليس صحيحاً أن في استطاعتهم تسمية كل الأساقفة – من بطرس وحتى اليوم بشكل مؤكد... وهم في الحقيقة يعرفون القليل، أو لا يعرفون شيئاً عن الأساقفة العشرة الأوائل، ومن بين العشرة الثانية، واحد فقط منهم هو شخصية تاريخية محددة في التاريخ. حقيقة الأمر أن السجل التاريخي ناقص كثيراً، مما يجعل وجود سلسلة غير منقطعة من الخلافة (للأساقفة) من الحواريين وحتى الوقت الحاضر، (أمر) لا يمكن إثباته أو نفيه."[1]

وعلى هذا نرى أن محاولة إنكار التاريخ الأول للكنيسة المصرية في الإسكندرية، واعتباره مجرد رواية أسطورية لا يوجد ما يؤكدها من الأدلة، هي محاولة سياسية وليست تاريخية. فالذين يريدون إنكار وجود القديس مرقص في مصر وإنشائه لكنيسة الإسكندرية، ينكرون العديد من الأدلة المتواترة التي اتفقت عليها المصادر القديمة كافة، بما فيها المصادر الرومانية. كما أن العثور على خطاب كليمنت السكندري في العصر الحديث، أكد وجود مرقص في الإسكندرية وكتابته الإنجيل هناك. فمن الصعب إنكار تاريخية الأساقفة التسعة الأوائل في مصر بحجة عدم وجود تفاصيل كافية عن سيرتهم، بينما نقبل تاريخية أساقفة روما الذين – إلى جانب عدم وجود تفاصيل عنهم – ليس هناك اتفاق عليهم بين المصادر الرومانية نفسها.

(1) Roman Catholicism, Loraine Boettner, The Banner of Truth, London, 1966, p. 167-168.

الهرطقة والرأي المستقيم

مع نهاية الحكم الفرعوني سنة ٣٠ قبل الميلاد، فقدت مصر كيانها السياسي المستقل وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. ومع انتهاء حكم الفراعنة، انهار الكيان الديني لمصر القديمة الذي سيطر على الحياة المصرية لحوالي ثلاثة آلاف عام. فالفراعنة هم الذين حفظوا النظام الديني القديم، عن طريق العطايا والأوقاف التي منحوها للمعابد وممارساتهم لطقوس العبادة - باعتبارهم من أبناء الآلهة - ومحافظتهم على تنظيم الاحتفالات التي يساهم فيها كل أفراد الشعب. أما السادة الجدد، وهم أباطرة الرومان، فلم يكن لديهم اهتمام بالحفاظ على المؤسسة الدينية المصرية ولا الإنفاق على المعابد القديمة، باستثناء معبد سرابس في الإسكندرية، مما أدى إلى إغلاق المعابد في جميع أنحاء البلاد لعدم توفر الأموال التي تمكنها من ممارسة نشاطاتها.

الآن، ولأول مرة في تاريخهم، وجد المصريون أنفسهم في ضياع دون الفرعون الإله، بدون المعبد والكهنة، يعملون في الحقول طوال العام حتى يتمكنوا من دفع الضرائب التي فرضها عليهم الرومان. وفي حالة الضياع هذه، وجد المصريون أنفسهم متحررين من القيود التي فرضها عليهم الكهنة، وراحوا يبحثون بأنفسهم عن خلاص مما هم فيه، دون مساعدة من الآلهة القديمة. في هذه الظروف ظهرت جماعة السراب (ثرابيوتيه) التي تحدث عنها فيلون السكندري، في بداية التاريخ الميلادي. كان الناس يتركون منازلهم وعائلاتهم وأموالهم، يهيمون في البرية متضرعين، متصوفين، يبحثون عن المخلص دون مساعدة من طائفة الكهنة التي انتهى وجودها. هنا ظهرت ممارسات جديدة وثقافة جديدة وعقائد جديدة بين المصريين، بطبيعة الأمر متأثرة بما كان في الإسكندرية من ثقافة ومعرفة، بما في ذلك الكتب التوراتية التي تم ترجمتها.

هذا العصر الجديد الذي بدأ في مصر بعد سقوط حكم الفراعنة، لا يمكن لنا النظر إليه باعتباره عصراً رومانياً، فليس لأمة أن تقسم تاريخها تبعاً للمغتصب الأجنبي الذي فرض سلطته عليها. وبدلاً من هذا، علينا تسمية هذا العصر اعتماداً على التغيرات الحضارية والثقافية والاجتماعية التي جرت في بلادنا وبين أبناء شعبنا في هذه الفترة. فهذا هو عصر المصريين دون حكامهم السابقين من الفراعنة، أي أنه عصر القبط. فقد أطلق الكتاب اليونان اسم إيجيبتوس على بلادنا – بمعنى أرض القبط – منذ أكثر من خمسة قرون قبل ظهور المسيحية. ومع هذا ففي حالة الضياع التي عاشها المصريون بعد انهيار المؤسسة الدينية الفرعونية، وبحثهم عن الخلاص في عقيدة جديدة تتفق مع عقائدهم القديمة، وبخاصة ما يتعلق منها بقيامة الأموات، كان المصريون هم أول الشعوب التي تقبلت العقيدة المسيحية الوليدة، من الإسكندرية في الشمال وإلى أسوان في الجنوب. وبينما كانت الحياة الأخرى موقوفة على الأغنياء في مصر الفرعونية، الذين يستطيعون تحمل التكاليف الباهظة للتحنيط والدفن، منحت المسيحية حياة جديدة لكل من يقبل العمادة وهو يشهد بقيامة يسوع. وهكذا صاحب العصر القبطي – عصر الشعب المصري بعد الفراعنة – انهيار الديانات القديمة وانتشار العقيدة المسيحية بين المصريين.

السبب الرئيسي الذي جعل الباحثين الغربيين يرفضون قبول العصر القبطي في التاريخ المصري، هو الاعتقاد الخاطئ بأن المسيحية لم تنتشر بين المصريين قبل القرن الميلادي الثالث، أو حتى القرن الرابع. أما المسيحيون الذين وجدوا في بلادنا قبل هذا التاريخ – بما في ذلك أتباع القديس مرقص – فقد اعتبروهم إما يونانيين وإما يهوداً: "بحسب روايات المسيحية الأولى، كانت المسيحية في مصر ذات طبيعة يهودية. ومع هذا فهناك روايات مبكرة أخرى تتحدث عن بعض القادة العارفين (الغنوصيين) سيئي السمعة الذين كانوا إما مولودين في مصر وإما تولوا التدريس في

هذه المنطقة لبعض الوقت."(١) وعندما لاحظوا أن الأسقف ديونيسيوس تمكن من التعرف على أربعة من الشهداء المسيحيين سنة ٢٥٠، يحملون أسماء مصرية، اعتبروا هذا التاريخ هو بداية انتشار المسيحية بين الشعب المصري.

ولكن الأدلة التي أصبحت متوفرة لدينا الآن لا تتفق مع هذا الاعتقاد. كيف يمكننا قبول القول بأن المصريين لم يعتنقوا المسيحية قبل القرن الثالث، بينما نحن نعرف جيداً أن أول معاهد لاهوتية درست هذه الديانة - لم تكن في روما أو القدس- بل كانت في الإسكندرية. فمدرسة اللاهوت بالإسكندرية - وهي أقدم مدرسة في هذا التخصص في العالم كله - كانت تدرس اللاهوت المسيحي في النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني. ومن المعروف أن هذه المدرسة كانت أهم معهد لتدريس اللاهوت في العالم المسيحي كله، حيث تلقى العديد من أساقفة الكنائس العالمية دراستهم تحت إشراف أساتذة شهيرين، من أمثال أثيناجوروس وكليمنت وديديموس، وخصوصاً أوريجون الذي كان يعتبر أباً لعلم اللاهوت. وجاء العديد من الباحثين إلى الإسكندرية - مثل سان جيروم - من روما، لزيارة هذا المعهد والتباحث مع الأساتذة والباحثين.

مسيحية العارفين (الغنوصيين)

استخدم تعبير (نوستكGnostic) في القرن الأول ومنتصف القرن الثاني، للدلالة على بعض الجماعات المسيحية التي ظهرت في مختلف بلدان الإمبراطورية الرومانية، وبخاصة في مصر. وهذا الاسم في أصله اليوناني يعني العارفين. لكن معرفة هؤلاء تختلف عن تلك التي تأتي عن طريق الحواس وتؤدي إلى المعرفة العلمية، فهي معرفة المقدس والمختفي عن طريق الاتصال الروحي بالرب، فهي مثل معرفة الصوفيين في الإسلام.

(1) The Roots of Egyptian Vhristianity, A. F. Klijn, Editors: Birger A. Pearson & Goehring, Philladelphia, 1986, p. 165.

لم يكن العارفون يهتمون كثيراً بالعقيدة أو بالفكر الديني العقلاني، وليس في اعتراف ثابت أو في شهادة، بل اهتموا بالقوة المستمرة للوحي المقدس. فالمعرفة عندهم هي التي يمكن الحصول عليها من التجربة الداخلية الشخصية. وكان القادة الأوائل لمسيحية العارفين أساتذة في مدرسة الإسكندرية للاهوت، منذ بدايات القرن الثاني للميلاد. يقول زكي شنودة: "ظهر مذهب الغنوصيين في فلسطين وسوريا في بداية ظهور الدين المسيحي، وقد وفق (هذا المذهب) بين الدين الجديد والأديان القديمة، وأقيمت له مدرسة بالإسكندرية في أوائل القرن الثاني للميلاد واعتنقه بعض المصريين... وكان يذهب إلى أن المسيح شخصان، هما المسيح ابن الله ويسوع الإنسان. وقد دخل المسيح الإلهي في يسوع الإنسان حين اعتمد من يوحنا، ثم تركه حين قبض اليهود عليه، وقد نسب بعض أنصار هذا المذهب إلى المسيح جسداً حقيقياً، بينما نسب بعضهم الآخر إليه جسداً وهمياً." (موسوعة الأقباط، الجزء الأول، صفحة ١٤٤).

اعتبر والتر باور أن سبب تجاهل المصادر الكنسية الأولى للكنيسة المصرية خلال القرنين الأولين للميلاد، يرجع إلى أن الشكل الذي كان سائداً في مصر خلال تلك الفترة، كان من نوع مسيحية العارفين الذي اعتبرته كنيسة روما نوعاً من الهرطقة. "في كتابه - الأورثوذوكسية والهرطقة - الذي نشر للمرة الأولى في ١٩٣٤، فسر والتر باور سبب الغياب المحير للمصادر الموثوق بها للبدايات المسيحية في مصر. فمن منظور الكنيسة الكاثوليكية المتأخرة، جادل باور، تعتبر بدايات المسيحية في مصر هرطوقية. لهذا لم يتم حفظ الكتابات المسيحية التي ألفت في مصر في العصر المتقدم، بينما تم إخفاء أجزاء أخرى من المعلومات أو لم يتم قبولها في خزانة الروايات الكنسية."(١)

(1) - History and Literature of Early Christianity, Helmut Koester, Walter De Gruyter, New York-Berlin, 1982, p. 227.

وفي العصر الحديث، حتى بعد ظهور أدلة مؤكدة تثبت انتشار المسيحية في مصر منذ المرحلة الأولى لهذه الديانة، لا يزال بعض مؤرخي الكنيسة يصرون على إنكار المسيحية المصرية لهذه الأسباب ذاتها. فهناك العديد من البقايا الأثرية التي تم العثور عليها في مصر، تظهر بوضوح أن الجماعات المسيحية كانت موجودة في البلاد، على الأقل منذ بداية القرن الثاني. وإلى جانب كتابات العارفين الغنوصيين، تم العثور على كتابات مسيحية مقدسة صارت بعد ذلك جزءاً من الشريعة الأرثوذكسية المقننة. ورغم انتشار جماعات العارفين ذات التعاليم المختلفة في مصر في تلك الفترة، فإن هذا الوضع لم يقتصر على مصر وحدها، فقد قام العارف فالنتينوس بتدريس اللاهوت في روما نفسها كما درسها في الإسكندرية. ففي تلك الحقبة - عند منتصف القرن الثاني - لم تكن الأرثوذكسية (الرأي السليم) قد تم تحديدها بعد:

"جوهر النقاش هو أن المسيحية المصرية الأولى كانت عارفية (غنوصية) بالكامل، وأنه بينما - ربما قد كان هناك العديد من الأفراد المسيحيين ليسوا من العارفين - لم تجد المسيحية الصحيحة قدماً راسخة في مصر حتى وقت متأخر من القرن الثاني؛ ونتيجة لهذا تم إخفاء التاريخ المتقدم للكنيسة على أنه مشين. هذا هو جزء من النظرية العامة لباور، أنه في كل مكان - وليس في مصر وحدها - كانت الهرطقة هي الأولى والأرثوذكسية هي الثانية."[1]

لما كنا هنا مهتمين بالتعرف إلى العناصر الثقافية التي تحدد العصر القبطي في مصر، فليس من شأننا مناقشة الخلافات العقائدية التي سادت بين الطوائف المسيحية، بل المهم لنا فقط هو تحديد الوقت الذي فيه اعتنق الشعب المصري الديانة المسيحية، والتاريخ الذي تكونت فيه كنيسة الإسكندرية. فبصرف النظر عما وصفه رجال الدين فيما بعد من أن بعض هذه الجماعات كانت للعارفين الغنوصيين أو

(1) - Manuscripts, Society and Belief in Early Christian Egypt, Colin H. Roberts, The Schweich Lectures of the British Academy, 1977, London, The Oxford University Press, 1979, p. 49-50.

الأرثوذكس أو حتى الهراطقة، فنحن لا يمكننا - من الناحية التاريخية - إلا اعتبارهم جميعاً مسيحيين. وعلى كل حال نحن نجد في كل البلدان التي اعتنقت المسيحية - وليس في مصر وحدها - جماعات ذات طبائع مختلفة ومتصارعة في بعض الأحيان، حتى منتصف القرن الثالث للميلاد. وفي الواقع فإن ما صار مقبولاً بعد ذلك على أنه الرأي الصحيح (الأرثوذكسي) لم يتم تحديده والاتفاق عليه إلا في القرن الثالث.

كان الأسقف إيرينيوس أول من هاجم المعلمين العارفين (الغنوصيين)، الذين اعتبرهم هراطقة. وكتب إيرينيوس عدة كتب، أهمها "في كشف وهدم المدعوين بالعارفين"، الذي يطلق عليه عادة اسم "ضد الهرطقة". كتب إيرينيوس هذا الكتاب باليونانية حوالي سنة ١٨٠، حتى يدحض تعاليم جماعات مختلفة من العارفين كانت موجودة خلال القرن الثاني، حتى في روما نفسها. ولما كانت تعاليم العارفين قد تم تحريمها وحرقها بعد ذلك، لم نعلم عنها شيئاً سوى ما كتبه إيرينيوس، إلى أن تم العثور على مكتبة نجع حمادي في صعيد مصر سنة ١٩٤٥م. فمنذ نهاية القرن الثاني، بعد ظهور كتاب إيلرينيوس، بدأ آباء كنيسة روما يضعون قواعد محددة لما يعتبرونه صحيحاً من العقائد وما قالوا إنه هرطقة.

دستور الإيمان الرسولي

لما كانت كنيسة روما تعتبر نفسها خليفة بطرس الرسول والحامية للعقيدة المسيحية في العالم كله، فقد قالت إنها هي وحدها تملك سلطة التفسير بوحي من الروح القدس. لهذا صار أي تفسير يتعارض مع التفسير الرسمي للفاتيكان، يعتبر هرطقة. وحتى الأسقف إيرينيوس نفسه - أول من هاجم الهراطقة - ذهب البعض بعد ذلك إلى القول بأنه كان مهرطقاً، والسبب في ذلك هو ما جاء في الفصل ٢٢ من كتابه الثاني الذي قال فيه إن يسوع عاش حتى بلغ عمره ٥٠ سنة. وفي صراعهم مع أساتذة العارفين الغنوصيين، حدد الأساقفة الرومان ما يعتبرونه بالعقيدة

الصحيحة، فلم يعد كافياً قبول العمادة مع النطق بقيامة المسيح حتى يصبح الشخص عضواً في الجماعة المسيحية (أي الكنيسة) لهذا وضع الأساقفة دستور الإيمان، الذي يجب قبوله من أجل الانضمام إلى الكنيسة. وكل من له آراء أو تفسيرات أخرى متعارضة، تم اعتباره هرطوقاً وطرد من الكنيسة.

وحتى يبقوا من يعتبرونهم هراطقة خارج الكنيسة، قام آباء الكنيسة منذ نهاية القرن الثاني بتحديد دستور الإيمان، مثل الشهادة عند المسلمين. هذه الشهادة تتمثل في نص محدد، يحتوي على عناصر العقيدة الأساسية كما تراها الكنيسة. فلا يوجد نص لمثل هذه الشهادة في كتب العهد الجديد، ولا لدى الجماعات المسيحية الأولى. ففي العهد الرسولي خلال القرن الأول، دعا الرسل (الحواريون) إلى الخلاص من خلال موت وقيامة يسوع المسيح، ابن الرب، أما ما يطلق عليه اسم دستور الإيمان الرسولي فهو لم يظهر إلا منذ نهاية القرن الثاني. وفي كتاب أعمال الرسل من العهد الجديد، قبل أن يقوم فيليب بتعميد الخصي الحبشي، أعلن الحبشي شهادته: "أومن أن يسوع المسيح هو ابن الله". (الأصحاح ٨: ٣٧). أما بولس الرسول فقد قال: "إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت." (رسالة بولس إلى أهل رومية، الأصحاح العاشر، الآية ٩) وهنا نجد أن العناصر الرئيسية للعقيدة المسيحية تقوم على ثلاث نقاط: الاعتراف بأن يسوع هو المسيح، وهو ابن الله، وبأنه مات على الصليب ثم قام من بين الأموات.

ثم حدث تغير في هذا الاعترف عند بداية القرن الثاني، عندما قام إجناتيوس في أنتيوخ بتقديم نص جديد: "ربنا... كان حقاً من سلالة داوود في الجسد، ابن الله بقوة وإرادة قدسية، ولدته العذراء... تم تسميره في الجسد من أجلنا تحت بونتياس بيلاطس،... من خلال قيامته يمكن أن يرفع رمزاً... في جسد كنيسته." هنا وردت أول إشارة إلى بونتيوس بيلاطس فيما يتعلق بموت يسوع، ولما كان العارفون يدعون أن المسيح قد ظهر على شكل رؤية غير جسدية لعدد من الرسل، ليس فقط في

القدس بل في أماكن وأوقات أخرى كذلك، فقد رغب إجناتيوس تحديد زمان ومكان موت يسوع.

بعد ذلك أخذ دستور الإيمان الرسولي شكله النهائي في روما عند بداية القرن الثالث:

"أومن بالله الآب العظيم، وبيسوع المسيح ابنه الوحيد، ربنا، الذي ولد من الروح القدس والعذراء مريم، الذي صلب تحت بونتياس بيلاطس، ودفن، وفي اليوم الثالث قام ثانية من بين الأموات، ورفع إلى إلسماء، (حيث) يجلس على اليد اليمنى للآب (ومن حيث) سوف يأتي (يعود) ليحاكم الأحياء والأموات، و(أومن) في الروح القدس، والكنيسة المقدسة، وفي غفران الرب، وقيامة الأجساد".

ثم قام المجمع الكنسي بالدفاع عن هذا الاعتقاد الذي أصبح يمثل الرأي الصحيح - أرثوذكسي - في مواجهة العقائد المسيحية الأخرى، التي تم اعتبارها هرطوقية. وكانت أول محاولة لجمع الأساقفة من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، هي التي قام بها الإمبراطور قسطنطين الأول في نيقايا - شمال غربي آسيا الصغرى - في صيف عام ٣٢٥. هنا وضع ٣١٨ أسقفاً الذين حضروا المجمع، القاعدة الرئيسية المتفق عليها لعناصر العقيدة الكنسية. وبعد ٥٦ عاماً، جمع الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الأساقفة سنة ٣٨١ في القسطنطينية، وتم إصدار وثيقة في العام التالي تتضمن نص دستور الإيمان الذي تم الاتفاق عليه.

الخلاف بين الكنيسة القبطية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية

أورد زكي شنودة في الجزء الأول من موسوعته لتاريخ الأقباط أوجه الخلاف بين الكنيسة القبطية وكنيسة روما في عدة نقاط:

١ - تعتقد الكنيسة القبطية أن للسيد المسيح - بعد التجسد - طبيعة واحدة متحدة، أما الكنيسة الكاثوليكية فتعتقد أن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد، إحداهما لاهوتية والأخرى ناسوتية (بشرية).

٢ - تعتقد الكنيسة القبطية أن الروح القدس منبثق من الآب، أما الكنيسة الكاثوليكية فتعتقد أنه منبثق من الآب والابن (معاً).

٣ - تعتقد الكنيسة القبطية أنه لا يوجد بعد الموت سوى النعيم للأبرار والجحيم للأشرار، أما الكنيسة الكاثوليكية فتعتقد أن هناك مكاناً ثالثاً يسمى المطهر، تعتقل فيه النفوس التي لم تصل إلى درجة النقاوة الكاملة، وتظل تعذب في ناره عذاباً أليماً حتى تفي بما بقي عليها من الدين للعدل الإلهي، وعندئذ يسمح لها دخول الملكوت.

٤ - تعتقد الكنيسة القبطية ... أن مغفرة الخطايا لا يمكن أن تتم دون توبة وانسحاق قلب، أما الكنيسة الكاثوليكية فتعتقد أن مغفرة الخطايا يمكن أن توهب بلا توبة، على أساس أن للكنيسة الحق في أن تعطي ما تشاء من الغفرانات...

٥ - تعتقد الكنيسة القبطية أن الرسل (الحواريين) متساوون جميعاً... أما الكنيسة الكاثوليكية فتعتقد أن السيد المسيح قد أقام بطرس نائباً عنه على الأرض ورئيساً على الرسل ورأساً للكنيسة. وقد رتبت على ذلك أنه لما كان بابا روما هو خليفة بطرس، فهو إذن رأس الكنيسة (كلها) من بعده، وهو نائب المسيح على الأرض ومن ثم فهو معصوم من الخطأ.

٦ - درجت الكنيسة القبطية - ومعها سائر الكنائس الرسولية - على إتمام سر المعمودية بالتغطيس (في الماء)، أما الكنيسة الكاثوليكية فقد عمدت منذ القرن الثالث إلى إتمام هذا السر بطريق الرش.

٧ - درجت الكنيسة القبطية على أن يتم مسح المتعمد بالميرون المقدس، بمجرد خروجه من المعمودية سواء أكان راشداً أم قاصراً، أما الكنيسة الكاثوليكية فترجئ ذلك بالنسبة إلى القاصر حتى يبلغ سن الرشد.

٨ – درجت الكنيسة القبطية على أن تستعمل في إتمام سر التناول الخبز المختمر، وأن تناول الخبز والخمر للجميع. أما الكنيسة الكاثوليكية فقد استبدلت الخبز المخمر بالفطير، كما أنها منعت عامة الشعب من تناول الدم الكريم.

٩ – أوجبت الكنيسة القبطية زواج القسوس والشمامسة مرة واحدة فقط، قبل وضع الأيدي عليهم. أما الكنيسة الكاثوليكية فقد حرمت الزواج على جميع رجال الكنيسة.

١٠ – سمحت الكنيسة القبطية بوضع الأيقونات والصور في الكنائس، ولم تسمح بعمل أيقونات بارزة أو منحوتة على شكل تماثيل، حتى تبتعد عن مظاهر الوثنية. أما الكنيسة الكاثوليكية فتتخذ التماثيل فضلاً عن الصور.

١١ – تحرم الكنيسة القبطية الطلاق إلا في حالة الزنا، أما الكنيسة الكاثوليكية فتحرمه في جميع الأحوال.

١٢ – تستوجب الكنيسة القبطية استدعاء الكاهن ليمسح المؤمنين بالزيت المقدس كلما أصابهم مرض. أما الكنيسة الكاثوليكية فلا تسمح بهذا الزيت إلا للمشرفين على الموت.

(الصفحات ٢٧٧ – ٢٧٩)

روما تعتنق المسيحية

كان الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذي جلس على العرش ما بين ٣٧٩ و٣٩٥، هو آخر الأباطرة الذين حكموا الإمبرطورية الرومانية بقسميها الشرقي والغربي. وهو الذي جعل المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية. فرغم أن قسطنطين الأول كان أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية، فإنه اكتفى بالسماح بالدعوة إلى الديانة الجديدة ضمن مجموعة العبادات الأخرى. فأصدر مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ يعلن فيه التسامح الديني في بلدان الإمبراطورية. ورغم حرية المسيحيين

في العبادة والدعوة إلى عقيدتهم، فقد ظلت العبادات الوثنية الرومانية هي المسيطرة بمعابدها الفخمة وطقوسها الاحتفالية، خصوصاً فيما يتعلق بتقديم الذبائح والقرابين للآلهة في الأعياد والمواسم.

وبعد حوالي ستين عاماً، قرر الإمبراطور ثيودوسيول الأول فرض الديانة المسيحية على جميع شعوب الإمبراطورية، والقضاء على العبادات الوثنية الموجودة بها. وتساءل ثيودوسيوس في اجتماع السينات (مجلس الشيوخ) في روما عن الديانة التي يجب أن تعتنقها روما، ديانة المسيح أم ديانة جوبيتر معبود الرومان. ثم أصدر ثيودوسيوس عدة قوانين أعلن فيها إلغاء الاحتفال بالأعياد الوثنية التي لم تقبلها الكنيسة كاحتفالات مسيحية، كما منع ذبح الأضاحي وحرم دخول المعابد الوثنية التي اضطرت إلى إغلاق أبوابها. وفي عام ٣٩١، أعلن ثيودوسيوس أن المسيحية هي الديانة الوحيدة المسموح بها في الإمبراطورية، وبدأت عملية تدمير المعابد الوثنية في كل أنحاء الإمبراطورية أو تحويلها إلى كنائس. في تلك الفترة تم تدمير معبد سرابس بالإسكندرية، بناء على تعليمات الإمبراطور.

ورد ذكر تحطيم معبد سرابس السكندري في المصادر الإكليرية، خصوصاً في كتابات روفينوس الذي كان وزيراً لدى الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، وهو الذي قام بترجمة تاريخ الكنيسة الأولى الذي كتبه يوسيبيوس (أسقف قيصرية على الساحل الفلسطيني) من اليونانية إلى اللاتينية. كما أضاف روفينوس كتابين إلى تاريخ الكنيسة لمتابعة أعمال يوسيبيوس الذي مات حوالي سنة ٣٢٥، وحتى وفاته هو سنة ٣٩٥. وقد أمضى روفينوس ثماني سنوات بالإسكندرية، درس خلالها في المدرسة اللاهوتية بالمدينة. يروي روفينوس تفاصيل الأحداث التي أدت إلى تدمير معبد سرابس بالإسكندرية:

"كان هناك شغب جديد في الإسكندرية... قام ضد الكنيسة. فقد كانت هناك كنيسة معينة تابعة للملكية العامة، قديمة جداً ومهملة. وقيل إن الإمبراطور

قسطنطين (الأول) أعطاها للأساقفة... وقرر الأسقف (ثيوفيلوس) الذي كان يحكم الكنيسة في هذا الوقت، أن يطالب الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول) بهذه الكنيسة، فبسبب زيادة عدد المؤمنين (المسيحيين) ينبغي زيادة عدد قاعات الصلاة. وعندما تسلم الأسقف الكنيسة ورغب في تجديدها ... وجد خفايا في هذا المكان فحفر الأرضية ... (لكن) الأمميين (الوثنيين) الذين شاهدوا ملاجئهم الخفية أو (أماكن) الجريمة وكهوف العار تنكشف ... بدؤوا يجنون ويتهيجون علانية ... وحاولوا جاهدين القتال بالقوة والسيف...

ومع أن جانبنا (المسيحي) كان هو الأقوى والأكثر عدداً، إلا أنه كان أقل عنفاً وكبح جماحه بسبب دينه. وهكذا فغالباً عندما يجرح عدد كبير من شعبنا وحتى البعض (عندما) قتل فوراً، فهم يهربون إلى المعبد كما لو كانوا يهربون إلى قلعة (تحميهم). وعندما أخذوا (أي الوثنيون) عدداً من المسيحيين معهم أسرى، أجبروهم على تقديم الأضاحي عند المذابح. وعذبوا من رفض منهم ... ولما كان معبدهم (السرابيوم) مغلقاً عليهم فقد عاشوا على النهب والسلب. وفي النهاية ... أحيل الموضوع إلى الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول)، حيث إن تحصين المكان (في السرابيوم) لا يسمح بالقيام بأي عمل (ضدهم) إلا إذا كانت هناك قوة أكبر لمواجهة رجال مصرين على أعمالهم الجنونية.

وفضل (الإمبراطور) برأفته الفطرية إصلاح أولئك الذين ضلوا بدلاً من خسارتهم، وأصدر مرسوماً بهذا الأثر: لا يجب فرض العقاب من (أجل) الذين سكبت دماؤهم أمام المذابح وصاروا شهداء، لأن عظمة فضلهم تقهر الحزن على موتهم ... ومع هذا فإن سبب الشر وأساس النزاع (أي معبد سرابس الوثني) ... يجب أن يستأصل تماماً ... وعندما وصل أمر الإمبراطور ... اجتمع الطرفان أمام المعبد (السرابيوم). وبمجرد أن فتحت الصفحة الأولى من الخطاب ... ارتفع ضجيج هائل من شعبنا (المسيحي) – (بينما) اجتاح الخوف والاستغراب الأمميين

(الوثنيين). وحاول كل منهم العثور على مكان للاختباء والبحث عن طريق للهرب، أو لدمج نفسه سراً بيننا".

(روفينوس، التاريخ الإكليري، الجزء ٢، الفقرة ٢٢)

كان معبد سرابس مقاماً في حي راقودة المصري غربي الإسكندرية القديمة، فوق ربوة ترتفع لأكثر من ثلاثين متراً عن سطح الأرض - وتمتد فوق مساحة ضخمة على شكل مستطيل. يتكون البناء بأكمله من أقواس لها شبابيك ضخمة فوقها. وتنفصل الغرف الداخلية المختفية عن بعضها البعض، لتتيح الفرصة للقيام بالطقوس المختلفة والفروض السرية. وتحتل غرف الجلوس والمصلات الصغيرة - التي تحتوي على أشكال للآلهة - حافة المستوى العلوي. وترتفع مساكن عالية هناك التي اعتاد الكهنة أو ... أولئك الذين يطهرون أنفسهم العيش فيها. وخلف هذه البنايات يوجد رواق يرتفع فوق أعمدة يواجه الداخل ويمتد حول محيط البناء. ويقف المعبد في الوسط، مقام بشكل رائع متسع، له واجهة من الرخام وأعمدة فاخرة. في داخل المعبد يوجد تمثال ضخم للمعبود سرابس يلمس كتفاه الجدران من حوله، تم بناؤه من المعدن والخشب. جدران المعبد الداخلية مغطاة بصفائح من الذهب والفضة والبرونز، كما جرى تصميم بعض أجزاء المعبد بطريقة تبهر الناظرين، فقد وضع شباك ضيق في الحائط الشرقي، بحيث تسقط أشعة الشمس عند شروقها على فم تمثال سرابس، فيبدو كأنه يقبل الشمس التي قدسها المصريون القدماء. كما وضع حجر مغناطيسي كبير داخل السقف، وعندما يضع الكهنة التمثال المعدني للإله أسفل المغناطيس، يرتفع التمثال معلقاً في الهواء بشكل سحري.

يتابع روفينوس وصفه للأحداث التي أدت إلى حرق السرابيوم: "بعد قراءة الأمر (الإمبراطوري) كان شعبنا (المسيحي) مستعداً لإسقاط المتسبب في الخطأ، إلا أن اعتقاداً نشره الأمميون (الوثنيون) أنفسهم بأنه إذا ما لمست يد إنسان التمثال بعنف، فإن الأرض ستنشق على الفور وتذوب في هرجلة، وستسقط السماء فجأة إلى

الهاوية. هذه القصة جعلت الناس يتوقفون بدون وعي (عن مهاجمة التمثال)، وعندما وقف أحد الجنود - الذي يحميه إيمانه أكثر من سلاحه - وأمسك فأساً لها حدان، وضرب فك الرجل الكبير (تمثال سرابس) بكل قوته. ارتفع الصراخ من الجانبين، لكن السماء لم تسقط ولا الأرض هبطت ... وتم حرق الرجل الكبير المتساقط أمام أعين الإسكندرية التي تعشقه."

(روفينوس، التاريخ الإكليري، الجزء ٢، الفقرة ٢٣)

"وتم تدمير كل شيء (في المعبد) وهدم حتي الأرض. (روفينوس، التاريخ الإكليري، الجزء ٢، الفقرة ٢٦). كان هذا هو الوقت ذاته - في منتصف القرن الرابع - الذي قام فيه بعض الرهبان البخوميين بإخفاء مخطوطات نجع حمادي في زلعة، دفنوها في أحد الكهوف عند المقابر الفرعونية بالصعيد. وهكذا، بعد حوالي ستة قرون من بنائه، جرى تدمير معبد السرابيوم وحل مكانه مزار وكنيسة.

كان من نتيجة حرق مكتبة السرابيوم، ليس فقط ضياع آلاف المخطوطات التي تضمنت خلاصة معارف الحضارات القديمة منذ ألفي عام، ولكن كذلك فقدان الذاكرة التاريخية للمصريين. كما ضاعت مئات الكتابات والنصوص التي تتضمن القصة الحقيقية لظهور العقيدة المسيحية، وانتشارها في أرض مصر.

الإسكندرية المسيحية

مدرسة اللاهوت

لدينا أدلة تبين وجود معلمين مسيحيين في الإسكندرية منذ عصر الإمبراطور هادريان، يعلنون حصولهم على مرجع رسولي لتعاليمهم منذ بدايات القرن الثاني للميلاد. ويتصل أقدم هذه الأدلة بالفيلسوف المسيحي باسيليدس، الذي عاش في الإسكندرية خلال الأعوام الأخيرة للإمبراطور هادريان (١٣٢-١٣٥). وفي تلك الفترة نفسها كان فالنتينيوس (وهو واحد من معلمي العارفين الغنوصيين) يعلن كذلك أن لديه حججاً رسولية مشابهة. وكان فالنتينيوس الذي يصغر باسيليدس، يقوم بالتدريس كذلك في بداية القرن الثاني، في وقت ما بين سنتي ١١٧ و ١٣٨. فقد أصبح السرابيوم الذي أقامه البطالمة في القرن الثالث قبل الميلاد، مركزاً للدراسات اللاهوتية المسيحية منذ نهايات القرن الميلادي الأول. ومنذ القرن الثاني أصبحت مدرسة اللاهوت بالإسكندرية هي أهم مركز لتدريس الفلسفة والعلم والعقيدة، في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وهنا ظهر أهم أساتذة هذه الدراسات: بانتانيوس، كليمنت السكندري، أوريجن، ديونيسيوس، ماكاريوس، وديديموس، الذين حاضروا في مدرسة اللاهوت. وكان أول هؤلاء الأساتذة العظام هو كليمنت السكندري (١٥٠-٢١٥)، وهو يوناني جاء إلى الإسكندرية للدراسة في مدرسة اللاهوت ثم أصبح مدرساً بها، وصار رئيسها في سنة ١٩٠. كان كليمنت يؤمن بأن المسيح يمثل اللوجوس (الكلمة)، وهو أصل العقل كما أن المسيح هو الذي يفسر الله للبشر، وخلفه أوريجون (١٨٥-٢٥٤) الذي ولد في مصر لوالدين مسيحيين.

وقد تحدث الباحث زكي شنودة في الجزء الأول من موسوعة تاريخ الأقباط عن الجامعة المسيحية في الإسكندرية فقال: "هي المدرسة اللاهوتية التي أسسها مرقص الرسول في أوائل سني كرازته، وقد اشتغلت في أول عهدها بدراسة مبادئ المسيحية ثم بتدريسها. ثم اشتغلت بعد ذلك - عن هذا - بالدراسات الفلسفية والعلمية والأدبية، وقد توثقت العلاقات في هذا الصدد بينها وبين علماء الجامعة الوثنية الأولى حتى قال الإمبراطور أدريانوس (هادريان) 'إن عباد سرابيس بالإسكندرية مسيحيون، كما أن أساقفة النصرانية يعبدون سرابيس'. وقد أسفرت دراسات هذه الجامعة المسيحية عن وضع أصول عُلم اللاهوت، الذي جابهت به الفلسفة الوثنية ... وقد أجمع مؤرخو الكنيسة الذين أدركوا العصور الرسولية ... على أن الفضل في انتشار المسيحية إلى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، كما يتضح من تاريخ الكنيسة أن كبار أساقفتها وعلمائها في الشرق، أمثال باسيليوس الكبير وغريغوريوس أخيه وغريغوريوس الناطق باللاهوتيات، مدينون بعلمهم وفضلهم لهذه المدرسة. وقال القديس أورينيموس في مقدمة ترجمته اللاتينية لكتاب "انبثاق الروح القدس" لديديموس الضرير إن ما جاء في مؤلفات أوغسطينيوس وأمبروسيوس وغيرهما من الموضوعات الفلسفية، منقول عن الفلسفة المسيحية المصرية". (الصفحتين ١٢٠ و ١٢١)

خطاب هادريان

لدينا كذلك شهادة رومانية على وجود الديانة المسيحية في الإسكندرية خلال النصف الأول من القرن الثاني. فبعد زيارة قام بها الإمبراطور هادريان للإسكندرية في سنة ١٣٤، كتب إلى نسيبه القنصل سيرفيانوس قائلاً: "أراك تطري في مصر يا عزيزي سيرفيانوس، أنا أعرف البلد من أعلاها إلى أدناها، ... فيها من يعبدون سرابس مسيحيون، وأولئك الذين يطلقون على أنفسهم (ألقاب) أساقفة للمسيح، يعطون نذورهم لسرابس". (نقله فليفيوس فوبيسكوس: Vita Saturini 8) .

يتضح من رسالة بارناباس وخطاب هادريان أن العقيدة المسيحية كانت منتشرة في مصر – على الأقل – منذ بداية القرن الثاني للميلاد، بعد أقل من أربعة أجيال فقط على موت القديس مرقص. صحيح أن العقيدة المسيحية في بداياتها كانت لا تزال مرتبطة بالعقيدة المصرية القديمة المتعلقة بقيامة الأموات، ولكن هذا الوضع كان سائداً في جميع البلدان وليس في مصر وحدها. ففي خلال القرنين الأول والثاني، كانت جماعات العارفين الغنوصيين هي المسيطرة على الفكر المسيحي في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، حتى في روما نفسها.

ومن أهم نجوم العارفين في تلك الفترة كان فالينتينيوس، وهو فيلسوف مصري ولد حوالي سنة ١٠٠ وبعدما أتم دراسته أصبح شخصاً مرموقاً في سن مبكرة بسبب علمه. وصار فالينتينيوس معلماً شهيراً في المجتمع المسيحي بالإسكندرية، وأنشأ مدارس لفكر العارفين في مصر وفي روما كذلك. وازدادت شعبية فالينتينيوس حتى في روما عاصمة الإمبراطورية، إلى أن تم ترشيحه ليكون أسقفاً في الفاتيكان في منتصف القرن الثاني. كان فالينتينيوس يؤمن بوجود قوتين – الخير والشر – تتصارعان بشكل دائم، ويرى أن المعرفة الحقة تأتى عن طريق معرفة النفس، التي هي الطريق الصحيح لمعرفة الرب. وبينما آمن فالينتينيوس بأن يسوع هو المخلص للبشرية، فقد اعتقد بأن الإنسان يعيش في عالم لا معنى له ولا يصبح له معنى إلا عن طريق معرفة الإنسان لنفسه.

سافر فالينتينيوس وهو بعد صغير إلى روما في أيام الأسقف سانت هيجينيوس (١٣٦–١٤٠)، حيث صار معلماً مهماً في الجماعة المسيحية لمدة ٢٥ عاماً ولعب دوراً مهماً في أعمال الكنيسة ما بين ١٣٥ و ١٦٠. وذكر تيرتيليون أن فالينتينيوس كان مرشحاً ليكون أسقفاً لكنيسة روما حوالي سنة ١٤٠، ولكنه خسر الانتخابات بأصوات قليلة. ورغم كونه واحداً من أهم معلمي العارفين، لم يقل أحد في ذلك

الوقت إنه كان هرطوقاً، بل إنه صار كاهناً في الكنيسة وكاد أن يصبح أسقفاً لروما رغم أنه كان مصرياً.

لكن الأمر تغير عند نهاية القرن الميلادي الثاني، عندما بدأ الآباء الرومان في تحديد ما يعتبرونه صحيحاً في العقيدة، ويقيمون النظام الإكليري للكنيسة. وفي سنة ١٨٠ نشر إيرينيوس أسقف ليون هجومه على العارفين الغنوصيين، واعتبرهم هراطقة. فما تم التعارف على أنه يمثل الرأي الصحيح - أورثوذوكس - جاء مع بداية القرن الثالث، نتيجة محاولة آباء الكنيسة تحديد ما هو غير صحيح في خلال صراعهم مع أساتذة العارفين. ومع نهاية القرن الرابع كان الأمر قد حسم لصالح الأساقفة، وتم القضاء على العارفين وكتاباتهم.

الآثار القبطية

منذ نهاية القرن التاسع عشر، تم العثور على الآلاف من النصوص المكتوبة المتعلقة بالمسيحية في مصر، تتمثل في مجموعات من البرديات والجلود وجدت في مناطق مختلفة من مصر. وتبين أن هذه الكتابات يرجع بعضها إلى بداية القرن الميلادي الثاني، بعد عقود قليلة من موت القديس مرقص في الإسكندرية. أول البرديات التي وصلت إلى أوروبا كانت واحدة باليونانية وقطعتين باللاتينية ذهبت إلى مكتبة جامعة بازل السويسرية، في أواخر القرن السادس عشر. ومنذ أن بدأت أعمال الكشف الأثري في القرن ١٩، تم العثور على الآلاف من البرديات التي حفظت بسبب جو مصر الجاف، مدفونة تحت الرمال. ومع هذا لم يهتم رجال الآثار كثيراً بدراسة النصوص المسيحية، حيث كان اهتمامهم منصباً على البقايا الرومانية.

فقد زاد الاهتمام بالمصادر المكتوبة لمصر في فترة وقوعها تحت الحكم الروماني منذ ١٨٧٧، عندما عثر الفلاحون في منطقة أرسينوي بالفيوم على مجموعة كبيرة من البرديات، تعود إلى فترة حكم الرومان. ففي منطقة الفيوم التي تعتبر بمثابة واحة كبيرة غربي النيل منخفضة عن مستوى سطح النهر، تم العثور على العديد من البقايا المهمة. وفي الأزمنة القديمة كانت بحيرة قارون تحتل موقعاً أكبر من هذا المنخفض، وكانت أرسينوي عاصمة الفيوم تطل على هذه البحيرة حيث كانت مركزاً لعبادة التمساح سوبك.

وتبين للباحثين أن البرديات التي وجدت في سنة ١٨٧٧، تحتوي على معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية تحت حكم الرومان. وفي القرن ١٩ وصل المخطوط المعروف باسم أسكيونس إلى المتحف البريطاني مع رحالة إنجليزي، وعندما تمت ترجمة النص اللاتيني لهذا المخطوط في برلين عام ١٨٥١، تبين أن محتواه

يتضمن كتاب العارفين الغنوصيين الضائع "بيستس صوفيا" أو "الإيمان والحكمة". وبعد هذا بأربعين عاماً قام إميل أميلينو في جامعة أكسفورد بترجمة قطع من البردي جاء بها رحالة آخر، تبين أنها تتضمن جزءاً من كتاب آخر للعارفين يعرف باسم كتاب جو - يتعلق بالإله العظيم الذي لا يمكن رؤيته، ويصف وحياً من المسيح القائم لتلاميذه يظهر لهم فيه سر العالم الآخر.

تبع ذلك نشر عدد آخر من كتابات العارفين المسيحية بين ١٨٩٢ و ١٨٩٦، والتي كانت مفقودة منذ أن حرمها الرومان في القرن الرابع. وفي ١٨٩٢م كذلك نشر بوريانت (مدير المعهد الفرنسي في القاهرة) مخطوطاً وجد في مقبرة بمدينة أخميم بالصعيد، يحتوي على أجزاء كبيرة من إنجيل بطرس. كما عثر في أخميم كذلك في الفترة نفسها، على إنجيل مريم والتعاليم السرية ليوحنا وحكمة يسوع المسيح وأجزاء من أعمال بطرس، وكلها من كتابات العارفين التي وجدت بعد ذلك ضمن مكتبة نجع حمادي القبطية. ولما كانت هذه الكتابات قد ورد الحديث عنها في كتابات الأسقف إيرينيوس عام ١٨٠، أمكن تحديد موعد كتابات أخميم إلى ما قبل هذا التاريخ.

كما تم الكشف عن كتابات مقدسة وكتابات مسيحية مهمة في مصر قبل الحرب العالمية الثانية، مكتوبة على برديات. وأقدم هذه الكتابات جاء في قصاصة صغيرة من إنجيل يوحنا، نشره سي إتش روبرتس من مكتبة ريلاندس البريطانية. وفي عام ١٩٤٤ علق المؤرخ إتش آي بل على هذه القصاصة بقوله: "لا يوجد بين أولئك الذين شاهدوا هذه (القصاصة) من هو على استعداد لوضعها في تاريخ بعد منتصف القرن الثاني، وقد أرجعها ديسمان إلى حكم هادريان (١١٧-١٣٨)، بينما ويكمان مستعد لقبول... (الفترة) ١١٧-١٢٠ على أساس الخط المستخدم. وإذا كان هذا النص أصلياً، يكون الإنجيل (يوحنا) قد كتب بعد سنة ١٠٠... هذه البردية تقع

مؤكداً في المدة بين ١٢٠ و ١٧٠، وهناك احتمال كبير برجوعها إلى التاريخ الأول بدلاً من النصف الثاني لهذه الفترة."(١)

وتم العثور على كتابات مسيحية أخرى في مصر، ضمن مخطوطة شستر بيتي، تتضمن رسائل بولس الرسول أرجعها أولرتش ويلكن إلى سنة ٢٠٠.(٢) ويبدو أن بعض الباحثين كانوا يقومون عمداً بتحديد تاريخ متأخر للكتابات المسيحية التي توجد بمصر، تماشياً مع اعتقادهم الخاص بتأخر اعتناق المصريين للمسيحية، فعندما تم نشر قصاصة تتضمن جزءاً من سفر التكوين من العهد القديم،(٣) فإن البريطاني جرنفل هانت حدد لها تاريخاً في النصف الأول من القرن الثالث، رغم أن طريقة كتابتها تشبه الطريقة التي كانت متبعة في القرن الثاني. وعلق إدرس بل (الذي كان مسؤولاً عن المخطوطات بالمتحف البريطاني) على هذا التحديد بقوله: "لا يسعني إلا أن أشعر أنه في تحديد تاريخ هذا (النص) وبعض برديات الكتاب المقدس، لم يكن (المؤرخون) غير متأثرين بالاعتقاد... بأن المسيحية لم تكن بعد قد اخترقت مصر الوسطى ومصر العليا، قبل القرن الثالث. وأنا شخصياً أضع هذه البردية بكل تأكيد في القرن الثاني."(٤) وهكذا بين الباحث البريطاني القدير إدرس بل بوضوح، كيف أن خبراء الخطوط كانوا في بعض الأحيان يتعمدون تأخير تاريخ النصوص المسيحية التي عثر عليها - خصوصاً في صعيد مصر - حتى تتفق مع اعتقادهم الخاص بعدم وجود مسيحيين مصريين قبل القرن الثالث.

(1) Evidences of Christianity in Egypt During the Roman Period, H. I. Bell, Harvard Theological Review, 1944, p. 199-200.

(2) N.P.S. Series II, pl. 182.

(3) P. Oxy. IV, 656, I.

(4) Evidence of Christianity in Egypt During the Roman Period, Harvard Theological Review, 1944, p. 201.

أقوال السيد المسيح

قام باحثون من جامعة أكسفورد بأعمال البحث الأثري في مدينة البهنسا في مصر الوسطى (أكسرينسوس القديمة) في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، هما جرنفل وهانت. وفي تلك الأثناء تم العثور على ٤٠٠ ألف قطعة من البردي في ملقى قديم للقمامة، في أكبر مخبأ للكتابات القديمة في التاريخ. وهنا بين قطع البردي هذه وجد جرينفل سنة ١٨٩٥ قطعاً من مخطوط يتضمن بقايا إنجيل يحتوي على أقوال للسيد المسيح، لم تكن معروفة من قبل. أحد هذه الأقوال جاء فيه: "يقول يسوع، إن لم تصم عن العالم، فلن تجد مملكة الله بأية كيفية، وما لم تحفظ السبت كسبت، فلن تر الآب". وجاء في قول آخر: "قال يسوع، النبي لا يقبل في بلده، ولا يشفي عمل الطبيب أولئك الذين يعرفونه". وتم تحديد تاريخ كتابة هذا الإنجيل إلى القرن الثالث، اعتماداً على الخط المستخدم في الكتابة.

إلا أن موسم الكشف الثاني في البهنسا عام ١٩٠٣، جاءت بقطعة بردي من مخطوط آخر. وتبين أن الكتابة هنا تم نسخها في ظهر تقرير للمساحة الأرضية، وتتكون من ٤٢ سطراً من الأقوال تم تحديد تاريخها في القرن الثاني. وأمكن قراءة بداية هذا المخطوط هكذا: "هذه هي ... الكلمات التي تكلم بها (الرب) يسوع الحي لـ... توماس، وقال، كل من (سوف يستمع) إلى هذه الكلمات لن يذوق (الموت)". وقد ذهب الأستاذ وليام إتش سي فرند - المؤرخ البريطاني الشهير في تاريخ الكنيسة القديمة - إلى أن أقوال يسوع هذه صحيحة، حتى ولو لم تكن داخلة في قانون العهد الجديد.[1]

(1) The Archaeology of Early Christianity, William H. C. Frend, London, Geoffrey Chapman, 1996, p. 148.

الكتابات المسيحية في مصر

عندما نحاول التعرف إلى نوعية الكتابات المسيحية التي تم الكشف عنها في مصر، والتي يرجع تاريخها إلى قبل نهاية القرن الثاني، نجد النتيجة التالية:

"كتاب المزامير (من العهد القديم)... يتمثل في أكثر (عدد من) المخطوطات عن أي كتاب آخر من الكتاب المقدس، سواء من العهد القديم أو العهد الجديد، ١٤ في المجمل... بعد ذلك يأتي سفر التكوين بتسعة مخطوطات، وباستثناء أشعيا وإرميا - وكل منهما ممثل بثلاثة مخطوطات - لا يوجد أي كتاب آخر من العهد القديم يتمثل في أكثر من مرتين... والأبوكريفا (الكتب المشكوك في صحتها) ممثلة فقط في الحكمة الإكليرية وتوبت. ومن بين كتب العهد الجديد، يلاحظ تعدد الإنجيل الرابع (يوحنا) بعشر تدوينات، رغم اقتراب (إنجيل) متى الذي يدخل بتسع. ويأتي (إنجيل) لوقا بأربعة مخطوطات... والنص الوحيد لمرقص في فترتنا هذه هو الموجود في مخطوط شستر بيتي للأناجيل وأعمال الرسل.

تم تسجيل الأناجيل كل على حدة، ولم تكن (الأناجيل) الأربعة غير متحدة في البداية فحسب، بل هناك دليل على أنها كانت توزع منفردة.... وتوجد رسائل بولس (الرسول) - إذا ما استبعدنا العبرانيين والرسائل المختصة بالكنيسة - في ثمانية كتب. وتوجد (رسالته إلى) العبرانيين في مخطوطة شستر بيتي... في بردية من بداية القرن الرابع.... وتوجد الرسائل المختصة بالكنيسة مرة واحدة فقط." [1] وبخلاف أناجيل العارفين الغنوصية التي لم تدخل ضمن أناجيل العهد الجديد، توجد كتابات العارفين (الغنوصية) خارج نصوص الكتاب المقدس.

---

(1) Manuscripts, Society and Belief in Early Christian Egypt, Colin H. Roberts, The Oxford University Press, 1979, p. 61-62.

الجماعات المسيحية

كما نرى فقد تم العثور في مصر على العديد من البرديات التي تتضمن كتابات مسيحية، سواء من الكتاب المقدس أو من خارجه، ترجع في تاريخها إلى القرن الثاني. وبينما تم شراء بعض هذه البرديات في سوق الأنتيكات، عثر المكتشفون على البعض الآخر منها. ومع أن غالبية الكتابات المسيحية التي عثر عليها جاءت من منطقة الفيوم، فقد عثر على كتابات أخرى في الصعيد: في أخميم وقفط والأقصر. وبعض هذه البرديات كانت مخبأة في زلع فخارية، والبعض الآخر وجد ضمن أكوام القمامة وأنقاض البيوت للمدن والقرى، والكثير منها من ممتلكات أشخاص مسيحيين. ويمكننا ملاحظة وجود كتابات مسيحية – سواء من بين كتابات الكتاب المقدس أو من خارجه – في صعيد مصر، تعود إلى القرن الميلادي الثاني. ويبين هذا بوضوح أنه في تلك المرحلة المبكرة، كانت الجماعات المسيحية قد انتشرت بالفعل في كل أنحاء مصر، وليس في الإسكندرية فقط. كما يبدو من هذه الكتابات أن الجماعات المسيحية في تلك الفترة، كانت تتكون من أناس عاديين من الطبقات الوسطى والصغرى: "عند نهاية القرن (الثاني) بدأ تأثير البحث الجديد يظهر نفسه، فهذه الكتابات القليلة توحي بمستوى عالٍ في المجالين الاقتصادي والثقافي... ويوجد في كتابين أكثر من إشارة لنشاط العارفين الغنوصيين."(1)

تؤكد كل هذه الأدلة انتشار العقيدة المسيحية بين أفراد الشعب المصري في جميع المناطق، من الإسكندرية في الشمال وحتى الأقصر في الصعيد. كما تعود هذه الأدلة إلى بدايات التاريخ المسيحي في القرن الثاني – أي ما بين سنتي ١٠٠ و٢٠٠ للميلاد. ولم يتم العثور على مثل هذه البقايا المسيحية – التي تعود إلى تلك الفترة المبكرة – في

(1) Manuscripts, Society and Belief in Early Christian Egypt, Colin H. Roberts, The Oxford University Press, 1979, p. 25.

أي من البلدان المسيحية الأخرى، بما في ذلك روما نفسها. وبينما تم العثور على العديد من كتابات العارفين في مصر، فقد وجدت كتابات كثيرة لما تم اعتباره بعد ذلك بالرأي الصحيح (الأورثودوكسي) كذلك، خصوصاً بين نصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. ومن الواضح أن الأدلة التي تقدمها البرديات التي تم الكشف عنها خلال القرنين الماضيين، لا تدع مجالاً للشك على انتشار المسيحية بين جميع المناطق المصرية، بعد فترة صغيرة من وفاة القديس مرقص في سنة ٦٨ للميلاد.

الكتابات القبطية

يصر الغالبية العظمى من الباحثين - رغم كل الأدلة التي رأيناها سابقاً - على أن العقيدة المسيحية لم تنتشر بين المواطنين المصريين، قبل العصر البيزنطي. وقد بينت معاينة الكتابات المسيحية التي عثر عليها في مصر والتي يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ٢٠٠ للميلاد، وجود عشرة مخطوطات: ٧ من كتب العهد القديم و٣ من العهد الجديد (يوحنا ومتى وتايتوس)، و٤ من خارج الكتاب المقدس (إنجيل إجرتون وراعي هرمس وإنجيل توماس وكتاب إيرينيوس ضد الهراطقة).[1] وفي مواجهة البقايا المسيحية الكثيرة التي تم الكشف عنها في مصر - والتي ترجع في بعض الحالات إلى نهاية القرن الأول - يعترف هؤلاء الباحثون بوجود جماعات مسيحية في البلاد في تلك الفترة، لكنهم يصرون كذلك على أن هؤلاء لم يكونوا مصريين، بل كانوا من اليونان واليهود.

فحتى أولئك الباحثون الذين يوافقون على تاريخية وجود القديس مرقص في مصر، يصرون على اعتبار الكنيسة التي تكونت في بلادنا يونانية ويهودية، وليست مصرية. ورغم عثور رجال الآثار على البقايا المسيحية في جميع أنحاء البلاد حتى جنوب الصعيد، فهم يصممون على أن المواطنين المصريين لم يعتنقوا المسيحية في تلك الفترة. وقد ذهب كولين روبرتس - وهو خبير بريطاني بارز في دراسة البرديات - إلى أن المسيحيين الأوائل في مصر كانوا من يهود الإسكندرية. كما يعتقد روبرتس أن العقيدة الجديدة وصلت إلى مصر عن طريق مدينة القدس، وليس عن طريق مرقص. ويرجع روبرتس سبب عدم وجود روايات عن الكنيسة الأولى في

(1) The Roots of Egyptian Christianity , Birger E. Pearson, Editors Birger E. Pearson & James E. Goehring, Fortess Press, Philadelphia, 1986, p. 133.

الإسكندرية، إلى أن المصادر القديمة نظرت إليهم على أنهم يهود فلم تتحدث عنهم كفئة مسيحية منفصلة. وقد رد الباحث الأمريكي بيرجر بيرسون على ما ذهب إليه روبرتس، قائلاً إن هذا الكلام هو مجرد تخمين لا يوجد من دليل يؤكده.(1)

كما تحدث يوسيبيوس - أسقف قيصرية على الساحل الفلسطيني - عن وجود مصريين من الصعيد من طيبة (أي الأقصر) من بين الشهداء المسيحيين الذين سقطوا في أثناء الاضطهاد الروماني في عهد الحاكم سبتيميوس سيرفيوس (١٩٨-٢٠٩):

"عندما أثار سيرفيوس الاضطهاد ضد الكنائس، جرى استشهاد الأبطال في كل مكان... وتم اصطحاب أبطال الله من كل مصر (و) من طيبة، إلى ساحة كبيرة. وهم من خلال رسوخهم وتحملهم لمختلف أنواع التعذيب وأصناف الموت، أحيطوا بتيجان وضعها الله... وكان سيرفيوس في السنة العاشرة لحكمه"[H.E. vi. I].

يتضح من رواية يوسيبيوس الذي كتب تاريخ الكنيسة، أن المسيحية كانت قد انتشرت في جميع أنحاء مصر عند بداية القرن الثالث، أي في العام ٢٠٠. وبينما كان المصريون في تلك الحقبة يتخذون لأنفسهم أسماء يونانية، فقد تبين وجود أربعة أسماء مصرية ضمن قائمة الذين استشهدوا أيام اضطهاد الإمبراطور ديسيان سنة ٢٥٠، هم حورس وأتر وإيسيدوروس ونمسيون. وبعد ذلك بأربع وثلاثين سنة، قتل عدد كبير من المصريين في أيام ديوكليتان، حتى أصبح هذا التاريخ يمثل عصر الشهداء عند الكنيسة القبطية، كما صار بداية للتقويم القبطي من ٢٩ أغسطس ٢٨٤. يقول زكي شنودة في الجزء الأول من موسوعة الأقباط: "كان أقسى الجميع على المسيحيين هو الإمبراطور دقليانوس (ديوكليتان) الذي جلس على العرش سنة ٢٨٤ ميلادية، فقد صمم هذا الإمبراطور على ألا يكف عن قتل المسيحيين حتى تصل دماؤهم إلى ركبة فرسه... وقد هدم كنائس المسيحيين وأحرق كتبهم وقبض على أساقفتهم وأذاقهم كل صنوف العذاب وأغرقهم في مذابح دامية لم يسبق لها

(1) - The Roots of Egyptian Christianity, p. 134.

نظير في التاريخ.... وقد قيل إن الذين استشهدوا في هذا الاضطهاد الذي استمر عشرين عاماً، يبلغ المليون. مما دفع الأقباط أمام هذا الهول الأكبر إلى أن يخلدوا تاريخ من ذهبوا ضحيته من شهدائهم، فبدؤوا تقويمهم بسنة ٢٨٤ للميلاد، وهي السنة التي ارتقى فيها دقلديانوس عرش المملكة، واعتبروها السنة الأولى في تاريخهم الذي أصبح يدعى تاريخ الشهداء ويبدأ من يوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية". (صفحتي ١٠٨ و ١١٠).

تم العثور على الكتابات المسيحية في كل أنحاء مصر، وفي مناطق ليس بها أجانب حيث لم يسكنها سوى المصريين، تتضمن نسخاً من الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث. إذا كانت الكتابات المسيحية - للعارفين الغنوصيين والأورثوذوكس كلاهما - التي عثر عليها في مصر تعود إلى نهاية القرن الميلادي الأول، أي بعد ثلاثة عقود فقط من استشهاد مرقص في الإسكندرية، فكيف يمكن للباحثين في التاريخ الكنسي تبرير استبعادهم للمصريين من كنيسة الإسكندرية؟

يجيب مؤرخو التاريخ الكنسي على هذا السؤال قائلين: لو كان المصريون حقاً اعتنقوا المسيحية في تلك الفترة، فكيف نفسر عدم وجود نصوص مسيحية باللغة المصرية في هذا التاريخ، حيث أن كل الكتابات الأولى في مصر لم تكن مكتوبة بالقبطية، ولكن باليونانية؟ ورغم وجاهة هذا التساؤل، فسوف نرى أنهم هنا يتهربون من الحقائق الثابتة فيما يتعلق باللغة القبطية.

اللغة القبطية

تمثل القبطية لغة المصريين القدماء في آخر أشكال تطورها، التي بدأت تستخدم في الكتابة منذ القرن الميلادي الثاني. كان المصريون القدماء يكتبون لغتهم بأنواع مختلفة من الخطوط: الهيروغليفي الذي يستخدم الصور - وكان يستعمل أساساً في الكتابة على جدران المعابد والمقابر، والهيراطيقي الذي يعتبر خط الرقعة الذي يكتفي بجزء من صورة الحرف فقط، وقد استخدم عادة في الكتابة على ورق البردي، والخط

الديموطيقي المختصر الذي ظهر حوالي ٧٠٠ قبل الميلاد، وصار هو المستعمل في أيام البطالمة.

كانت الكتابات المصرية القديمة - مثلها في هذا مثل الكتابة العربية - لا تحتوي على أحرف للحركات. وخلال القرن الميلادي الأول - إن لم يكن قبل ذلك بقليل - بدأت محاولات لتحديد قراءة أصوات الكتابات المصرية، وبخاصة تلك التي تتعلق بأمور السحر - عن طريق استخدام حروف الأبجدية اليونانية. وبالتدريج ظهر خط جديد للكتابة المصرية، يستخدم الأحرف اليونانية الأربعة وعشرين بالإضافة إلى سبعة أحرف من الخط الديموطيقي. وكان هذا هو بداية ظهور الكتابة القبطية التي تستخدم ٣١ حرفاً أبجدياً، كما استعارت القبطية تعبيرات يونانية بدلاً من المصرية القديمة، خصوصاً في الموضوعات الدينية المسيحية. ومع أن القبطية كان لها خمسة أشكال تمثل اللهجات الخمس التي كان المصريون يستخدمونها في الحديث، إلا أنها كانت تستخدم في الكتابة فقط. أما بخصوص لغة الكلام فقد ظلت كما كانت في أيام الفراعنة، دون تغير كبير سوى في الكلمات الأجنبية التي أضيفت إليها.

وقد تحدث زكي شنودة في موسوعته للتاريخ القبطي عن لهجات اللغة القبطية:

١ - اللهجة البحيرية: وكانت تعرف سابقاً بالمنفية نسبة إلى مدينة منف. وكانت تستعمل في الإسكندرية وما جاورها والدلتا ووادي النطرون. والراجح أنها كانت أول لهجة وضعت قواعد لكتابتها وأنها أقرب اللهجات في تراكيبها ومفرداتها إلى الكتابة الديموطيقية. وأصبحت البحيرية هي اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ أن نقل البابا خريستوذولوس البطريكية في أوائل القرن الحادي عشر من وادي النطرون إلى القاهرة.

٢ - اللهجة الصعيدية: وكانت تعرف في البداية بالطيبية نسبة إلى مدينة طيبة (الأقصر). نشأت بعد البحيرية مباشرة وأصبحت هي اللهجة الأدبية لمصر العليا والوسطى.

٣ - اللهجة الفيومية: كانت تستخدم في الفيوم، ويسميها البعض البشمورية.

٤ - اللهجة الإخميمية: كانت تستخدم في إخميم.

ويبدو أن اللغة المصرية القديمة كانت تستخدم في الكلام بخمس لهجات، لكن لعدم وجود حركات في الهيروغليفية - مثلها في هذا مثل العربية - لم يكن ممكناً التعرف عليها. وعندما استخدمت القبطية الحركات الموجودة في اليونانية، ظهرت الفروقات بين اللهجات الخمس، وهي: (١) البحيري التي استخدمت في منف والدلتا (٢) الفيومي في الصحراء الغربية (٣) الأخميمي في المنطقة المحيطة بأخميم (٤) جنوب أخميم في أسيوط (٥) الصعيدي في منطقة الأقصر. وقد أصبح الشكل الصعيدي هو الغالب في الكتابة القبطية، ثم حلت محلها البحيري بسبب أعمال الرهبان في وادي النطرون، وهي التي أصبحت مستخدمة حتى الآن في الكنيسة القبطية. ومنذ خضوع مصر للحكم العربي في ٦٤١، بدأت الكتابة القبطية في الاضمحلال ومنذ القرن ١١ صارت النصوص الدينية المسيحية تكتب بالقبطية والعربية، حتى أصبحت تكتب بالعربية فقط في العصر الحديث.

لم تكن أولى المحاولات لكتابة أعمال أدبية بالقبطية لها علاقة بالمسيحية، بل كانت لها طبيعة وثنية (كشف الأبراج والسحر) التي جرت منذ القرن الأول. ومع أن القبطية صارت منذ القرن الثالث تستخدم في الكتابات المسيحية فقط، ففي المرحلة الأولى التي تعرف الآن باسم القبطية القديمة، لم تكن لها أية علاقة بالديانة الجديدة. وبعد ظهورها كلغة مكتوبة تطورت القبطية لتصبح لغة أدبية، لها قواعد خاصة ونظم للهجاء. وكان الدافع إلى تطوير القبطية هو الرغبة في تقديم ترجمات للنصوص المسيحية اليونانية، لتكون في متناول المواطنين المصريين الذين لا يجيدون اليونانية. ويعود أقدم استخدام للقبطية في الكتابات المسيحية التي وصلتنا إلى القرن الثالث، ويتكون من قاموس بالقبطية للكلمات اليونانية المستخدمة في كتب أشعياء وهوشع وعاموس. وبعد ذلك ظهرت كتابات تم تأليفها بالقبطية مباشرة، كان أولها

خطابات القديس أنتوني للرهبان من آباء الصحراء. وفي خلال القرنين الثالث والرابع ظهرت كتابات عديدة بالقبطية للكهنة والرهبان، من بينهم سان باخوميوس وسان أثانايوس وسان ماكاريوس.

خلال الثلاثة قرون الأولى للتاريخ الميلادي: "كانت لغات الكتابة التي ظهرت بها غالبية النصوص (المسيحية) اثنتين، اليونانية والقبطية... وحتى هذا التاريخ تكونت غالبية الكتابات من تذكارات الدفن، التي تم نشر المئات منها... ومن المهم معرفة أنه بجانب تواريخ الوفاة المكتوبة، التي يتم حسابها إما بحسب فترة الشهادة أو من دلالة دورة السنين، وكثيراً ما توجد صلاة للمتوفى وكذلك عظة للأحياء بعدم الحزن، لأن ليس هناك من هو خالد في هذه الحياة. ومن أنواع الصلوات أو بالأحرى المواعظ للصلاة: كل من يأتي إلى هذا المكان يصلي من أجلي، أنت إبراهيم خادم يسوع المسيح، آمين. مصر قد صارت كلها مسيحية، لأنه في مثل (هذا النوع من) الكتابات من الواضح أنها تفترض أن الذين يمرون (على القبر) سوف يقدمون الصلوات المسيحية المناسبة من أجل المتوفى."(1)

من المتفق عليه أن العهد الجديد بأكمله وغالبية كتب العهد القديم تم ترجمتها إلى القبطية الصعيدية، قبل نهاية القرن الرابع. ومع هذا - فكما رأينا سابقاً - هناك بعض الباحثين الذين يحددون تواريخ متأخرة للنصوص المسيحية المصرية، نظراً إلى اعتقادهم الشخصي وليس بناء على الأدلة المتوفرة. وقد اعترف كولين روبرتس أنه قام بتحديد تواريخ الكتابات القبطية، ليس بما يتفق مع أدلة خط اليد المتعارف عليها، ولكن بحسب اعتقاده الشخصي: "كنت... متحفظاً في قبول الكتابات القبطية في قائمة المخطوطات التي تسبق (في تاريخها) القرن الرابع."(2) أي أنه عندما

(1) - The Roots of Egyptian Christianity, S. Kent Brown, Fortress Press, Philadelphia, 1986, p. 26-28.

(2) Manuscripts, Society and Belief in Early Christian Egypt, Colin Roberts, The Oxford University Press, 1979, p. 64.

يجد كتابة قبطية تؤكد الأدلة أنها تسبق القرن الرابع، يرفض قبولها في قائمته، بسبب قناعته الخاصة بأن المصريين لم يعتنقوا المسيحية قبل هذا التاريخ. ولهذا السبب فإن السير فريدريك كنيون طالب بتحديد تاريخ مبكر للترجمة القبطية للكتاب المقدس.

المشكلة التي نواجهها هنا، هي أن بعض الباحثين لا يعترف بوجود مسيحيين مصريين في مصر، قبل ظهور الترجمات القبطية للكتاب المقدس.

"ربما يكون أقدم دليل من المخطوطات على البعثة (المسيحية) إلى الأقباط، هو قاموس يوناني- قبطي لهوشع وعاموس نسخ على ظهر تسجيل لأرض، يؤرخ عند نهاية القرن الثالث.... ومن نفس الوقت جاءت قواميس بالفيومي القديم (وهو قبطي مكتوب بدون الحروف الهيروغليفية السبع) على حافة (كتاب) أشعياء في (مخطوطة) شستر بيتي، ثم القواميس الصعيدية بعد ذلك بقليل، في المخطوط الحر للأنبياء الصغار. الآن نجد أقباطاً أكثر تعرفاً على لغتهم القومية من معرفتهم باليونانية، منشغلين في كتابة مخطوطات يونانية... وهناك عدد من المخطوطات القبطية التي يمكن - بشكل منصف - اعتبار أنها كتبت خلال فترتنا (خلال القرون الثلاث الأولى للتاريخ الميلادي)."(1)

(1) Manuscripts, Society and Belief in Early Christian Egypt, The Oxford University Press, 1979, p. 65.

تدوين الكتاب المقدس

رغم العثور على عدد كبير من نصوص الكتاب المقدس في مصر - بما في ذلك أجزاء من العهد الجديد - فقد كانت كلها مكتوبة باليونانية وليس بالقبطية. ويذكر زكي شنودة في الجزء الأول من موسوعته عن تاريخ الأقباط كيف "استعملت اللغة القبطية منذ أواسط القرن الثالث الميلادي في تدوين الرسائل والوثائق. وقد دون بها الكتاب المقدس بعد ترجمته من اليونانية كما دونت العظات وكتب الطقوس وسير القديسين وغير ذلك من المقطوعات الأدبية". (صفحة ١١). وقد استند بعض الباحثين على هذا للقول بعدم اعتناق المصريين للمسيحية في القرون الثلاث الأولى، يقول هلموت كويستر أستاذ الدراسات المسيحية الأولى بجامعة هارفارد: "لم يعتنق المصريون المسيحية قبل تطوير طراز جديد من الكتابة يقوم على أساس الأبجدية اليونانية، الذي حدث بناء على مبادرة الدعاة المسيحيين خلال القرن الثالث."[1]

ما يقوله كويستر فيه نوع كبير من عدم الدقة، فلو أننا طبقنا هذه القاعدة نفسها على كل مناطق الإمبراطورية الرومانية، وليس على مصر وحدها، فسوف نصل إلى نتيجة عدم وجود أمة واحدة كانت تعتنق المسيحية في تلك الفترة، سوى بلاد اليونان. ففي خلال القرون الثلاث الأولى كانت كل الجماعات المسيحية - في جميع أنحاء العالم - لا تستخدم سوى اليونانية في كتاباتها اللاهوتية. كان الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد مكتوباً باليونانية فقط، خلال هذه السنوات الأولى. وفي الجانب الآخر، لم يكن المصريون في حاجة إلى قراءة النصوص بلغتهم حتى يعتنقوا الديانة الجديدة، فمنذ بداية تاريخهم كانت الغالبية العظمى من المصريين لا يعرفون

(1) History and Literature of Early Christianity, Walter De Gruyter, New York-Berlin, 1982, p. 226.

القراءة والكتابة، فهذه كانت موقوفة على الكهنة والكتبة الحكوميين. لم يكن أتباع الديانات القديمة في حاجة إلى تعلم القراءة والكتابة حتى يتمكنوا من ممارسة شعائرهم الدينية.

لم تكن هذه حال المصريين وحدهم، بل إن اليهود الذين عاشوا في مصر لم يكن في استطاعتهم كذلك قراءة كتبهم التوراتية، قبل ترجمتها إلى اليونانية في الإسكندرية أيام البطالمة. كما أن الكهنة والكتبة المصريين تعلموا اللغة اليونانية وصاروا يستخدمونها في كتاباتهم، منذ حكم البطالمة عند بداية القرن الثالث قبل الميلاد. ونحن نعرف أن مانيتون الكاهن المصري، قام بكتابة عدة كتب باليونانية في تلك الفترة. وبينما كانت جميع المخطوطات الموجودة في مكتبة الإسكندرية مترجمة إلى اليونانية، فقد كانت طقوس العبادة في معبد السرابيوم تتم بهذه اللغة كذلك تحت إشراف الكهنة المصريين.

ولو نظرنا إلى باقي الأمم التي اعتنقت المسيحية فنحن نجد عكس ما يقوله كويستر، إن المصريين قاموا بترجمة الكتابات المسيحية إلى لغتهم القبطية منذ منتصف القرن الثالث، قبل أي شعب آخر. فحتى القرن الرابع: "تحدث عالم المسيحية الأول اليونانية، حيث كان لسانه المتحضر وكتاباته المسيحية باليونانية... وكانت لغة كنيسة روما لا تزال يونانية في القرن الثالث. بعد ذلك أخذت اللاتينية محلها وصارت مجال التواصل بين الثقافات الأوروبية."(١)

حلت اللغة اللاتينية الرومانية مكان اليونانية إذاً، منذ القرن الرابع فقط. قبل هذا التاريخ كانت الكتابات المسيحية في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية باليونانية، عدا مصر التي بدأت تستخدم القبطية كذلك منذ منتصف القرن الثالث. فمصر هي أول بلد يقوم بترجمة النصوص المسيحية إلى اللغة القبطية الصعيدية، قبل البلدان الأخرى. وتدل

(1) - The Christian Orient, British Library, British Museum Publications, 1978, p. 16.

الترجمة القبطية الصعيدية في منتصف القرن الثالث، على انتشار المسيحية بين المصريين في الصعيد في تلك الفترة، التي تلاها عمل ترجمة باللهجة البحيرية كذلك. ونحن نجد أن أقدم النسخ اللاتينية الموجودة لدينا الآن لكتب العهد الجديد، تأتي بعد حوالي قرن من النسخ القبطية. فقد تولى سانت جيروم (٣٨٢-٤٠٤) ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية بناء على طلب من البابا دماسكوس، وصارت هذه الترجمة هي السائدة في العالم الغربي خلال القرون الوسطى، ولا تزال حتى الآن تستخدم في الكنيسة الرومانية. ثم جاءت الترجمة السريانية للأسقف ربولا التي تمت حوالي سنة ٤١١.

تجميع القانون الكنسي

لم يتم العثور على أقدم نسخ للكتاب القدس في البلدان التي يعتقد مؤرخو الكنيسة بانتشار المسيحية فيها أولاً: فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والرومان، بل وجدت في مصر حيث ينكرون وجودها. وأقدم النسخ المعروفة لأي جزء من العهد الجديد، وجد على شكل قطع من ورق البردي ومخطوطات أقدم كتابة من إنجيل يعود إلى القرن الثاني. قطعة بردية صغيرة وجدت سنة ١٩٣٥ – ضمن مكتبة جون رايلاندس بمناشستر في بريطانيا – تحتوي في أحد وجوهها جزءاً من إنجيل يوحنا (الأصحاح ١٨، الآيات ٣١-٣٣) وعلى وجهها الآخر (الأصحاح ١٨، الآيات ٣٧-٣٨). وقد تم تحديد تاريخ هذه القصاصة في النصف الأول من القرن الثاني حوالي سنة ١٢٥، تبعاً لنوعية الكتابة وخط اليد المستعمل. وتبين من دراسة الآيات التي عثر عليها (والتي تعود إلى حوالي ٤٧ سنة من وفاة القديس مرقص) أنها تتفق مع ما جاء في النسخ اللاحقة، في مخطوط الفاتيكان ومخطوط إفرامي السرياني.

القصاصة التالية تتكون من ثلاث قطع صغيرة من ورقة لمخطوط، تم شراؤها من أحد تجار الأنتيكات في الأقصر سنة ١٩٠١، وهي الآن محفوظة في مكتبة كلية

ماجدالين بمدينة أكسفورد. وتبين من دراسة الخط والكتابة أنها تعود إلى أواخر القرن الثاني. بها عمودان من الكتابة في كل صفحة، كما دون على الوجهين أجزاء من إنجيل متى (الأصحاح ٢٦، الآيات ٧، ١٠، ١٤-١٥، ٢٢-٢٣، ٣١، ٣٢-٣٣).

من هذه الكشوفات التي وجدت في مصر، استنتج الدكتور ويليام فريند - وهو واحد من المراجع الهامة في تاريخ الجماعات المسيحية الأولى، أن: "لا بد وأن المسيحيين المصريين كانت لديهم رواية إنجيلية متواصلة (متواترة)، مستمرة منذ بداية القرن الثاني (أي ١٠٠ م.)".(١)

كما لاحظ جي زونتز، وهو واحد من أهم الخبراء في دراسة النصوص اليونانية القديمة، أن قوانين بولينيوم - التي تعود إلى بولس الرسول - تم صياغتها بطريقة الكتابة التي كانت سائدة في مدينة الإسكندرية، وربما كتبت في هذه المدينة نفسها عند بداية القرن الثاني: "ليس هناك مفر من هذه النتيجة... أنه في النصف الثاني من القرن الثاني، كان لدى أسقفية الإسكندرية مكان مخصص للكتابة (سكريبتوريوم)، التي - بما أنتجته - حددت مستوى النوع السكندري من مخطوطات الكتاب المقدس. (بل إن زونتز طرح احتمال أن يكون تاريخ هذه الكتابات أسبق من ذلك) ويمكن ملاحظة أن الدراسات الأخيرة اعتبرت أن الرسالة الرسولية مجهولة الأصل (إبيستولا أبوستولايم)، مصرية (المصدر) تعود إلى بداية القرن الثاني، وتمثل آراء مجموعة أرثوذكسية قليلة في كنيسة منقسمة."(٢)

كان شستر بيتي، وهو أمريكي عاش في لندن، قد اشترى الغالبية العظمى من هذه المخطوطات وهو في زيارة بمصر، بينما اشترت جامعة ميتشيجان الأمريكية وأفراد آخرون الجزء الباقي. وبلغت المجموعة كلها أحد عشر مخطوطاً، يعود تاريخها

(1) The Archaeology of Early Christianity, William H. C. Frend, 1996, p. 226.

(2) Manuscripts, Society and Belief in Early Christian Egypt, Colin H. Roberts, The Oxford University Press, 1979, p. 54.

إلى ما بين القرن الثاني والرابع، ويعتقد أنها تمثل مكتبة لإحدى الكنائس المصرية القديمة. وتتضمن هذه المخطوطات أجزاء من ٩ كتب من العهد القديمْ و١٥ كتاباً من العهد الجديد، إلى جانب كتاب إينوخ وموعظة ميليتو الذي من ساردس. كما يتضمن جزءاً من هذه المجموعة رسائل بولس الرسول، يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ٢٠٠، مما يجعلها أقدم من مخطوط الفاتيكان بحوالي قرن ونصف. وفي مخطوط شستر بيتي القديم لا نجد التغييرات التي ظهرت في المخطوطات التالية، فهي تحفظ رسائل بولس في أقرب صورة مما كان عليه الأصل الذي كتبه بولس نفسه.

يتكون القانون الكنسي من ٢٧ كتاباً للمسيحية الأولى، بالإضافة إلى كتب العهد القديم التي تم اعتراف الكنيسة بها ككتابات مقدسة. إلا أن القانون الكنسي لم يكتمل تكوينه بشكله الحاضر قبل سنة ٣٦٧، وقبل ذلك التاريخ كانت هناك كتب مختلفة متداولة، وكان على كل كنيسة أن تستخدم منها ما تراه يتفق مع تعاليمها. وقد اعتمد المسيحيون في البداية على تفسير كتب العهد القديم وبخاصة كتب الأنبياء، من أجل التأكيد على أن يسوع هو المسيح الذي كان منتظراً. كما استخدم الرسل (الحواريون) أقوال يسوع خلال هذه الفترة في تعاليمهم، وهناك اتفاق بين باحثي الكتاب المقدس على وجود مجموعة من الأقوال المنسوبة إلى المسيح في تلك الفترة، والتي يطلقون عليها اسم (كيو). وهم يعتبرون أن إنجيل توماس الذي تم العثور عليه ضمن مكتبة نجع حمادي في مصر سنة ١٩٤٥، هو أقرب ما عثر عليه شبهاً بكيو هذا.

كذلك تم العثور على كتابات تمثل تعاليم الرسل (الحواريين)، وربما كان أغلب ما وصلنا منها هو رسائل بولس الرسول، التي صارت تمثل جزءاً هاماً من كتابات العهد الجديد. وفي الحقيقة فإن رسائل بولس، هي أول كتابات مسيحية تم جمعها حتى قبل جمع الأناجيل. وليس هناك معلومات محددة عن تاريخ تجميع الأناجيل الأربعة في كتاب واحد، ولكن الاعتقاد الشائع يذهب إلى أن إنجيل مرقص هو أقدم

الأناجيل. ولم تظهر أناجيل العهد الجديد في مجموعة واحدة قبل النصف الثاني من القرن الثاني، عندما اعتبرت الكنيسة أن الأناجيل الأخرى هرطوقية لا يمكن قبولها.

كانت أولى محاولات تجميع الكتابات المسيحية في كتاب واحد، هي التي قام بها مارسيون الذي عاش في سينوب في بونتوس بآسيا الصغرى. وكان مارسيون واحداً من أساتذة العارفين الغنوصيين، ذهب إلى روما سنة ١٣٩ التي طرد من كنيستها بعد خمس سنوات، نظراً إلى آرائه المخالفة لتعاليمها. وتحدى مارسيون كنيسة روما، فقام بنشر أول تجميع للكتابات المسيحية التي تضمنت إنجيلاً واحداً فقط، هو إنجيل لوقا، ومعه رسائل بولس الرسول. وكان إنجيل لوقا الموجود في مجموعة مارسيون، مختلفاً عن ذات الإنجيل كما ورد بعد ذلك في كتابات العهد الجديد. ولدينا قائمة رسمية منذ الربع الأخير من القرن الميلادي الثاني، تحتوي على أسماء المجموعة التي تم جمعها في أول قانون كنسي Canon. ففي كتابه ضد الهرطقة سنة ١٨٠، يتحدث الأسقف إيرينيوس عن أول تجميع للأناجيل الأربعة ويذكر ٢٢ كتاباً هي: الأناجيل الأربعة، أعمال الرسل، ١٣ رسالة لبولس (رسالته إلى العبرانيين لم تكن موجودة بعد)، رسالة بطرس الأولى (الرسالة الثانية غير موجودة)، رسالتين ليوحنا، وسفر الرؤيا. كما يتحدث إيرينيوس عن كتاب باسم "راعي هرمس" من بين الكتابات المقدسة، وهذا كتاب مصري المصدر. كما كان إيرينيوس هو أول من تحدث عن الأناجيل الأربعة باعتبارها وحياً مقدساً، ربما للرد على مارسيون الذي قدم لوقا على أنه الإنجيل الصحيح الوحيد.

عند بداية القرن الرابع قام يوسيبيوس، أسقف قيصرية على الساحل الفلسطيني، بتقسيم كتب المسيحية إلى ثلاثة أنواع: المعترف بها، والمختلف عليها، والهرطقة. ثم قام اللاهوتي السكندري أثناسيوس سنة ٣٦٧ بتحديد قائمة كتب القانون الكنسي في ٢٧ كتاباً، للمرة الأولى متضمناً ما نجده الآن في العهد الجديد. وأعلن أثناسيوس بعدم جواز إضافة أي كتاب إلى هذه القائمة أو حذف أي كتاب

منها. وبعد ذلك تم إقرار قائمة الكتب السبعة والعشرين هذه في مؤتمر كارثاج الثالث، لتكون بمثابة القانون الكنسي المتفق عليه.

رغم وجود آلاف النسخ من العهد الجديد التي ترجع إلى الفترة الممتدة بين القرن الثاني والقرن السادس عشر - من بينها ٥ آلاف و ٣٦٦ نسخة يونانية - لا تتفق هذه النسخ تماماً فيما بينها في كل التفاصيل. فهناك العديد من الاختلافات والقراءات بين هذه النسخ، التي ظهرت في غالبيتها بين القرنين الثاني والثالث. وعلى العموم فنحن نرى أن كل نسخ العهد الجديد الموجودة، تأتي من ثلاثة مصادر أصلية: المصدر السكندري، المصدر الغربي، المصدر الشرقي. وتوجد لدينا الآن أربع نسخ من النصوص القديمة المتوحدة من الكتاب المقدس، مكتوبة على جلد العجل: المخطوط الفاتيكاني، المخطوط السينيائي، المخطوط السكندري، ومخطوط إفرامي السرياني.

المخطوط الفاتيكاني

مخطوط الفاتيكان مكتوب على الجلد الرقيق، ويتضمن الغالبية العظمى من نصوص الكتاب المقدس باليونانية. كان المخطوط يتكون من ٨٢٠ ورقة تبقى منها ٧٥٩، من بينها ١٤٢ لكتب العهد الجديد. ونحن نعرف أنه وصل إلى مكتبة الفاتيكان بروما، قبل عمل فهرست المكتبة للمرة الأولى سنة ١٤٧٥. حدد الخبراء تاريخ تدوين المخطوط الفاتيكاني بناء على الخط وأسلوب الكتابة في القرن الرابع، كما حددوا مكان كتابته في الإسكندرية.

المخطوط السينيائي

يرجع اسم هذا المخطوط إلى جبل سيناء حيث أنه وجد بمكتبة دير سانت كاترين أسفل هذا الجبل، عثر عليه قسطنطين تشيندورف في ١٨٥٩، ثم أهداه إلى

قيصر روسيا. كان المخطوط يتكون من ٧٣٠ ورقة وجد منه ٣٩٠ فقط، منها ٢٤٢ من العهد القديم و ١٤٨ من العهد الجديد. وظل المخطوط في مدينة لينينجراد حتى قام المتحف البريطاني بشرائه من الحكومة السوفيتية في ١٩٣٣، مقابل ٥٠٠ ألف دولار. ويرجع تاريخ مخطوط سيناء إلى حوالي عام ٣٥٠.

المخطوط السكندري

أدى وجود عدد كبير من نسخ الكتابات المسيحية المختلفة خلال القرنين الثاني والثالث، إلى الرغبة في إيجاد نسخة تقوم على معيار محدد. ويسود الاعتقاد الآن أن الباحثين المسيحيين في الإسكندرية هم الذين قاموا في القرن الرابع بتجميع عدد من المخطوطات المهمة - مثل بردية شستر بيتي - وقاموا بحذف نقاط الخلاف بينها، فتوصلوا إلى نص توافقوا عليه صار يعرف باسم النص المصري أو السكندري. النسخة الوحيدة الباقية من النص السكندري أعطاها أسقف القسطنطينية - سيريل لوكار - للسفير البريطاني لدى الباب العالي. وكان سيريل لوكار أسقفاً للإسكندرية حتى عام ١٦٢٠، ويرجح أنه أخذ المخطوط معه عند انتقاله إلى القسطنطينية. وأرسل السفير البريطاني لدى الباب العالي مخطوط الإسكندرية إلى لندن في ١٦٢٨ حيث وضع بالمكتبة الملكية، التي صارت تابعة للمتحف البريطاني بعد ذلك. ويعود المخطوط السكندري إلى النصف الأول من القرن الخامس، أي أنه جاء بعد مخطوطي الفاتيكان وسيناء، كانت به ٨٢٠ ورقة وجد منه ٧٧٣، ٦٣٠ للعهد القديم و١٤٣ للعهد الجديد. ومن المتعارف عليه أن المخطوط السكندري هو أكثر المخطوطات التي يمكن الاعتماد عليها بين ما تم العثور عليه.

مخطوط إفرامي السرياني

كان مخطوط إفرامي موجوداً لدى الكاردينال ريدولفي في مدينة فلورنسا الإيطالية خلال القرن ١٦، وهو عضو في عائلة مديسي الشهيرة التي تولت ترجمة

الكتابات الكلاسيكية من اليونانية إلى اللاتينية. ثم انتقل في نفس القرن إلى فرنسا مع كاثرين دي مديسي التي صارت زوجة لهنري الثاني ملك فرنسا، ووضع المخطوط في بيبلوتيك ناشيونال وهو موجود بها حتى الآن. مخطوط إفرامي أعيدت صياغته في القرن ١٢ عن مخطوط آخر كتب باليونانية في القرن الخامس. ثم جرى مسح الكتابة الأصلية وكتب بدلاً منها ترجمة يونانية لمحاضرة إفرايم السرياني، الذي كان لاهوتياً مشهوراً في الكنيسة السورية في القرن الرابع. عثر على ٢٠٩ ورقة، منها ١٤٥ لكتابات العهد الجديد - ويأتي هذا المخطوط بعد المخطوطات الثلاثة السابقة في الأهمية والتاريخ.

ترجمات العهد الجديد

ظلت الترجمة اللاتينية للعهد الجديد هي الوحيدة المستخدمة في جميع البلدان الأوروبية، حتى بعد حركة الإصلاح البروتستانتية في القرن السابع عشر. ولما لم يكن قد تم العثور بعد على المخطوط السكندري، فقد تمت الترجمة اللاتينية عن الأصل البيزنطي الأقل ضبطاً. وعلى هذا الأساس تمت ترجمة نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس في بريطانيا إلى الإنجليزية في ١٦١١. لكن الترجمة التي تمت بعد ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية اعتمدت على مخطوط الفاتيكان ومخطوط سيناء، مما يجعلها أكثر دقة.

إلى جانب المخطوطات اليونانية الأربعة القديمة للكتاب المقدس المكتوبة، يوجد لدينا مخطوطان للترجمة القبطية التي تمت باللهجتين الصعيدية في القرن الثالث والبحيرية في القرن الرابع. بل إن ثلاثة من المخطوطات الأولى للكتاب المقدس الموجودة الآن، وجدت في مصر مما يوحي بكتابتها في هذا البلد: الفاتيكاني والسينيائي والسكندري. وبدلاً من إنكار تحول المصريين إلى المسيحية استناداً إلى

عدم وجود ترجمة قبطية للعهد الجديد في القرنين الأول والثاني، فنحن نجد أن الترجمة التي تمت في مصر إلى القبطية بدأت منذ القرن الثالث قبل ظهور أية ترجمة أخرى. فلم تظهر الترجمة اللاتينية إلا بعد حوالي قرن من الترجمة القبطية، ولم تظهر الترجمات إلى اللغات الأوروبية قبل القرن السابع عشر. فهل يعني هذا عدم وجود مسيحيين في روما أو في أوروبا قبل ظهور الترجمات إلى لغات تلك البلدان؟!

ظهور الرهبنة في مصر

نظام الرهبنة للنساك الذي أصبح أحد الأعمدة الرئيسية للنظام الكنسي الكاثوليكي في العصور الوسطى، ولد في صعيد مصر ثم انتقل إلى روما. وليس هناك خلاف بين الباحثين في الأصل المصري لنظام الرهبنة، رغم عدم اتفاقهم على التاريخ الذي ظهر فيه هذا النظام للمرة الأولى. وقد سبق ظهور الرهبنة حتى قبل قبول روما للمسيحية في ٣١٣، حيث تشير الأدلة إلى بدايته خلال القرن الثالث، حوالي العام ٢٧٠. وكانت تعاليم النساك المصريين هي التي حددت التخطيط العام للنظام الروحي الذي يتبعه الرهبان في حياتهم. كانت بدايات الرهبنة في مصر عند منتصف القرن الثالث، ومنها انتشرت إلى جميع أنحاء العالم المسيحي. تطور نظام الرهبنة عن حياة النساك المسيحيين البدائية، على طريقين مختلفين: الحياة في عزلة عن الجماعة، والحياة داخل مجتمع من النساك. وحتى قبل بداية نظام الرهبنة، كان بعض الأفراد يهجرون العالم ويعيشون في عزلة عن المجتمع في المناطق النائية. والفكرة الرئيسية في الرهبنة هي نبذ العالم واتباع حياة النساك، مع إنكار الذات. وفي العصور الوسطى تطورت الرهبنة إلى نظام منعزل، يقوم على أساس المشاركة في التقشف والعبادة والتأمل في عزلة.

وبحسب ما أورده زكي شنودة في الجزء الأول من موسوعته لتاريخ الأقباط، فالرهبنة نظام بدأ يستهوي نفوس المسيحيين منذ الجيل الثالث للمسيح، وتوطدت نظمه وتقاليده وطقوسه على أيدي الرهبان الأوائل: أنطونيوس وباخوميوس ومكاريوس وغيرهم ممن آثروا العزلة والتبتل، مقتفين أثر السيد المسيح في طهره وتقشفه وتضحيته من أجل البشر، ومتشبهين بمن سبقوه من الأنبياء.... وكان من أوائل الناسكين في أواخر القرن الثالث، القديس الأنبا بولا، ثم الأنبا أنطونيوس

والأنبا باخوميوس، ثم ظهر في أوائل القرن الرابع الأنبا مكاريوس، وهؤلاء هم الذين وضعوا أسس الرهبنة وسنوا شرائعها. (صفحتي ١٨١ و ١٨٧)

القديس أنتونيوس

يعتبر أنتوني هو الأب الأول لنظام الرهبنة في مصر، فقد خرج إلى البرية في سنة ٢٧١ ليعيش على انفراد، وبعد ذلك بعشرين عاماً قام بعمل تنظيم لنظام الرهبنة. ويأتي أغلب ما نعرفه عن أنتوني من كتابات سانت أثاناسيوس الرسولي، الذي كان تلميذاً وصديقاً له. ولد أنتوني سنة ٢٥١ لعائلة قبطية متيسرة، في كمنت العروس بمصر الوسطى. مات أبواه وهو في الثامنة عشر تاركين في عهدته أخته الصغيرة ديوس، وبعد ستة أشهر سمع وهو في الكنسية قول يسوع: إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني. (إنجيل متى، الأصحاح ١٩، الآية ٢١) اعتبر أنتوني أن هذه الرسالة موجهة إليه شخصياً، فباع غالبية ميراثه وأعطى جزءاً منها للفقراء والباقي لأخته. وبعد قضاء فترة في الدراسة ذهب أنتوني ليعيش في كهف ويصلي لخلاص العالم. وعندما بلغ من العمر ٣٥ سنة، انتقل إلى منطقة تسمى بيسبير حيث عاش وحيداً لمدة عشرين عاماً. وراح الناس يأتون ليقيمون بالقرب منه ويقلدونه في طريقة حياته، حيث صار هو معلمهم الروحاني يدلهم على طريقة حياة النساك. وعندما بدأ الاضطهاد الروماني للمسيحيين المصريين على يد ماكسيمينيوس ديا في حوالي سنة ٣٠٠، سافر أنتوني إلى الإسكندرية ليرعى المسجونين هناك، ثم عاد إلى حياة الوحدة بعد نهاية الاضطهاد.

لم يقم أنتوني بتشكيل نظام للأديرة، بل كانت طريقته تعتمد على مجرد العمل والصلاة في عزلة عن العالم، وإن كان قد اختار لباس الرهبان الذي يتكون من رداء من التيل الأبيض، له حزام جلدي في الوسط. وانتشر نظام النساك في مصر في تلك الحقبة، وعندما مات سان أنتوني سنة ٣٥٦ عن ١٠٥ سنة، كان هناك نظامان للرهبنة قد تكونا في مصر. فظهرت قرى ومستعمرات للنساك، وأديرة كذلك يعيش فيها جماعة من

الرهبان في مكان واحد، ولا يزال دير القديس أنتوني قائماً حتى الآن في الصحراء المصرية، ولا يزال العديد من الرهبان مستمرين في العمل الذي بدأه إلى يومنا هذا.

القديس بخوميوس

بعد حوالي جيل من بداية نشاط أنتوني، تجمع بعض الرهبان والراهبات المنعزلين وكونوا جماعات يساعد بعضهم بعضاً ويشجع بعضهم الآخر. وكانت هذه هي بداية تكوين جماعات الرهبان والراهبات الذين يعيشون في مكان واحد ويتعاونون سوياً في معيشتهم ونشاطاتهم الدينية، وهو النوع الذي انتشر في العالم بعد ذلك. وكانت بداية ظهور هذا النوع من الرهبنة بفضل باخوميوس، في الجنوب بالصعيد، بالقرب من مدينة الأقصر الحالية. كان باخوميوس معاصراً للقديس أنتوني يصغره بسنين عديدة، ولد في مدينة طيبة (الأقصر) والتحق للخدمة بالجيش الروماني في شبابه. لم يكن باخوميوس قد اعتنق المسيحية بعد عندما سافرت فرقته سنة ٣١٣ عن طريق نهر النيل، في طريقها إلى الإسكندرية. وعندما توقفت المركب التي تقل الجنود في الطريق عند منطقة بها نساك مسيحيون، تأثر باخوميوس كثيراً بمدى الكرم وحسن المعاملة التي تلقوها منهم وقرر اعتناق المسيحية بمجرد ترك الجيش. عند انتهاء خدمته بعد ثلاث سنوات - وكان في الثانية والعشرين من عمره - وبدأ حياته كناسك في قرية صغيرة، وأقام في معبد مهجور لسرابس حيث زرع حديقة وعاش على نتاجها.

وأهم ما قام به باخوميوس هو تكوين جماعة من الرهبان تعيش سوياً في مكان واحد، وتعمل وتتعبد سوياً - فكانت هذه هي بداية نظام تجمعات الرهبان في الأديرة واتباعهم لنظام خاص، وبخاصة بعد أن جاء القديس بنيديكت وأقام نظامه الشهير على قواعد باخوميوس - ثم قام سان جيروم الذي تولى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية، بترجمة قواعد باخوميوس، التي لا تزال تستخدم في العديد من الأديرة حتى وقتنا هذا. هذه الأديرة تعتبر وحدة اجتماعية متكاملة، يمكنها الاعتماد

على نفسها في كل ما تحتاج إليه. فلديها مزارعها الخاصة ولديها مراعيها ومطابخها، وحتى مستشفياتها ومكتباتها التي يعمل فيها الرهبان. وأقام سان باخوميوس ديره الأول حوالي سنة ٣٢٣ بالقرب من دندرة، ثم صار لديه حوالي تسعة أديرة كبيرة للرجال وديران للنساء عند وفاته بعد ٢٣ سنة، وبلغ مجموع الرهبان والراهبات حوالي عشرة آلاف.

كان الدير الباخومي يتكون من مجموعة من البيوت - قد تصل إلى ٤٠ بيتاً - يحيط بها السور، وفي كل بيت يسكن حوالي ٤٠ راهباً. وهناك أب (أبوت) يشرف على الدير يساعده رئيس لكل بيت، ويتم توزيع الرهبان على البيوت بحسب نوع العمل الذي يقوم به كل منهم، فمثلاً هناك بيت للنجارين وبيت للمزارعين وما إلى ذلك. وفي يومي السبت والأحد يجتمع كل الرهبان في الكنيسة للقداس، وبحسب ما ذكره سان جيروم في بداية ترجمته لقواعد باخوم: كانت طاولات الطعام تعد مرتين في اليوم عدا يومي الأربعاء والجمعة التي كانت أيام صيام. ولم يكن الرهبان يتناولون سوى القليل من الطعام، الذي غالباً ما يكون مجرد كسرة خبز. لم يتوقف نشاط الدير الباخومي على العبادة وحدها، بل كان بمثابة وحدة إنتاجية يتم فيها القيام بكل أنواع المهن. وكان هذا النشاط يتضمن عمليات البيع والشراء، فكان للرهبان مراكب خاصة بهم لنقل إنتاجهم عن طريق نهر النيل، سواء في ذلك الإنتاج الزراعي أو الصناعي، إلى أماكن الأسواق. وبخلاف دير باخومي واحد بالقرب من الإسكندرية، قامت جميع الأديرة في منطقة صغيرة من صعيد مصر. أما تجمع الرهبان بشكل انفرادي فقد انتشر في كل مكان، خصوصاً في شمال البلاد.

انتشار نظام الرهبنة خارج مصر

بعد ذلك انتشرت أديرة الرهبان في داخل مصر، خصوصاً على الطريق الذي يعتقد أن بني إسرائيل اتبعوه في أثناء خروجهم من مصر أيام موسى عليه السلام، ممتداً إلى شبه جزيرة سيناء. وكانت المنطقة الواقعة عند جبل سيناء وسانت كاترين،

بمثابة بؤرة لانتشار الرهبان والنساك رغم الخطر الذي واجهوه من البدو والأعراب. ثم ظهرت التجمعات الرهبانية في فلسطين، حيث قام سان هيلاريون الذي تتلمذ على أنتوني بنشر الرهبنة في غزة ثم في قبرص. كما قام صديقه سان إبيفانوس الذي عاش في مصر فترة شارك فيها الرهبان حياتهم، بإنشاء دير آخر في فلسطين سنة ٣٣٠. إلا أن العامل الذي ساعد على نشر نظام الرهبنة بسرعة في كل أنحاء العالم المسيحي، كان هو المذكرات التي نشرها سان أثاناسيوس السكندري.

قام أثاناسيوس بزيارة روما في ٣٤٠ مصطحباً معه راهبين مصريين، لنشر تعاليم النساك هناك. وسرعان ما انتشرت الرهبنة في روما وجميع أنحاء إيطاليا، ثم إلى باقي بلدان أوروبا وشمال أفريقيا، كما وصلت إلى القسطنطينية التي صارت عاصمة البيزنطيين بعد ذلك. وفي مجمع خالسيدون الكنسي في ٤٥١ أصبح نظام الرهبنة جزءاً من الحياة المسيحية الذي تم تشريعه بحيث لا يتدخل الرهبان في عمل الكنيسة، ووصل عدد الأديرة في عاصمة الدولة البيزنطية إلى حوالي ٤٥ ديراً في سنة ٥١٨.

وبعكس ما يقال من أن مصر لم تعتنق المسيحية قبل القرن الرابع، فنحن نجد أن نظام الرهبنة المسيحية نشأ في مصر منذ منتصف القرن الثالث بين أهل الصعيد، بل وخرج منها هذا النظام بعد ذلك ليغزو العالم المسيحي بأكمله.

السرابيون (ثيرابيوتيه)

هناك دلائل كثيرة على أن مصر قد عرفت نظام النساك المتعبدين، حتى قبل ظهور القديس أنتوني والقديس باخوميوس بحوالي أربعة قرون. وهناك بعض الروايات التي ترجع هذه العادات إلى القرن الأول للميلاد، بل إلى الجماعة المسيحية الأولى في مصر:

"النساك (في مصر)... كانوا متميزين كجماعة محددة داخل الطوائف المسيحية منذ نهاية القرن الثاني... وقد قدر البعض أن الرهبنة المسيحية الجديدة كانت (بمثابة)

إحياء أو تطوير (لطائفة)... السرابيين التي وصفها فيلون (السكندري)."[1] وكان يسيبيوس أسقف قيصرية هو أول من أثبت أن حركة السرابيين الأوائل، تمثل أول جماعة مسيحية في مصر في وقت القديس مرقص. وبحسب ما أورده فيلون السكندري، وهو المصدر الوحيد المعاصر الذي تحدث عن السرابيين، فقد انتشرت هذه الجماعة في كل أنحاء مصر، ومنها خرجت إلى باقي بلدان العالم. كان السرابيون أعضاء في جماعة من المتأملين الذين فضلوا الحياة البسيطة. وهم يتخلون عن العالم تماماً، يهربون منه دون النظر إلى الوراء تاركين زوجاتهم وأولادهم وأهليهم، ... ويقيمون مقاراً لأنفسهم خارج الأسوار في الحدائق والأماكن المنعزلة، طالبين الوحدة.

ومثل ما فعله الرهبان في القرن الثالث، كان السرابيون يتخلون عن ممتلكاتهم لأهليهم، ويسكنون الأكواخ والأماكن المهجورة، يأكلون طعاماً بسيطاً من الخبز والملح أو التوابل، ولا يشربون إلا الماء. يبدأ السرابيون يومهم كل يوم بالصلاة عند الفجر، ويصلون ثانية عند غروب الشمس في المساء. وفي ساعات النهار ينهمكون في قراءة الكتابات المقدسة، كما يتفكرون ويحاولون تفسير النصوص الدينية تفسيراً مجازياً، وليس حرفياً، حيث كانوا يعتبرون أن الكلمات ما هي سوى رموز لمعان مختفية.

ولد فيلون السكندري (الشاهد الرئيسي على ممارسات السرابيون) حوالي سنة ١٥ قبل الميلاد لعائلة يهودية، ومات حوالي عام ٥٠ للميلاد. وعلى هذا يكون فيلون قد عاصر مجيء القديس مرقص إلى الإسكندرية في منتصف أربعينيات القرن الأول، قبل حوالي خمس سنوات من وفاته. ورغم انتمائه إلى عائلة يهودية محافظة فقد تأثر فيلون بالفلسفة الأفلاطونية، وحاول التوفيق بين التوراة والفلسفات القديمة.

(1) A Study in Primitive Monasticism, Owen Chadwick, Cambridge at the University Press, 1950, p. 14.

وبسبب تأثره بالفلسفة الأفلاطونية ومحاولته تفسير الكتابات المقدسة مجازياً، كانت أفكاره متقاربة إلى حد كبير مع الفكر المسيحي في بداياته، لهذا كانت الكنيسة هي التي حفظت كتاباته من الضياع.

أما الأسقف يوسيبيوس الذي استشهد برواية فيلون عن السرابيين للقول بوجود كنيسة مصرية منذ متنصف القرن الميلادي الأول، فقد ولد عام ٢٦٠ في مدينة قيصرية على الساحل الفلسطيني. ثم أصبح يوسيبيوس أسقفاً لمدينة قيصرية في ٣١٤، وحرص على جمع الروايات الموجودة في عصره عن التاريخ الأول للحركات المسيحية، مما مكنه من كتابة تاريخ الكنيسة خلال القرون الثلاث الأولى. وأصبح يوسيبيوس مستشاراً للإمبراطور قسطنطين وهو الذي قام بتعميده مسيحياً قبل وفاته. وعندما ذهب يوسيبيوس في كتابه إلى اعتبار السرابيين بمثابة الجماعة المسيحية الأولى في مصر، قام بالمقارنة بين ممارسات هذه الجماعة وبين ما يفعله المسيحيون. فهم يتركون ممتلكاتهم ومتعلقات الحياة، ويتركون بيوتهم حتى يتمكنون من ممارسة واجباتهم الروحية. كما أن صيامهم يشبه الصيام المسيحي، وكذلك يقع احتفالهم الرئيسي في ذات تاريخ احتفال المسيحيين بعيد القيامة.

لم يعارض الآباء ما ذهب إليه يوسيبيوس وهو كتابه عن تاريخ الكنيسة الذي صدر في بدايات القرن الرابع، من أن السرابيين كانوا جزءاً من الجماعة المسيحية الأولى في مصر. بل إن سان جيروم الباحث في الدراسات المسيحية الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية، وضع اسم فيلون ضمن قائمة كتاب التاريخ الكنسي بسبب روايته عن السرابيين. ولم يتم الخلاف على هذه الرواية إلا بعد مضي ١٢ قرناً، في عهد الإصلاح البروتستانتي خلال القرن السادس عشر. فقد عارض البروتستانت نظام الرهبنة وأنكروا أن يكون السرابيون مسيحيين على هذا الأساس، وفي دفاعها عن نظام الرهبنة اعتمدت السلطات الكاثوليكية على كون السرابيون من أتباع مرقص، وكانوا من المترهبنين. لكن الكتاب البروتستانت صمموا على أن نظام

الرهبنة لم يظهر قبل القرن الرابع مع القديس أنتوني، وعلى هذا رفضوا قبوله كجزء أساسي من النظم المسيحية. ولم تنته هذه الخلافات إلا في القرن ١٨، عندما تم التوافق على قبول رأي البروتستانت، واعتبار رواية يسيبيوس عن السرابيين غير تاريخية. بعد هذا ساد الاعتقاد بين البحثين على أن السرابيين كانوا طائفة من اليهود المسيحيين أو من العيسويين (Essenes).

هذا التوصيف غير صحيح، حيث أن السرابيين ظهروا في مصر أولاً، ومنها انتشروا بعد ذلك في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. بينما ظهر العيسويون في فلسطين - داخل الجماعة اليهودية - ولم ينتشروا خارجها إلا في سورية. كما أن هناك بعض الخلافات بين الطائفتين، ولو اتفقا في عدد من النقاط. فبخلاف العيسويين، اهتم السرابيون بالفلسفة وكانوا يعيشون في عزلة - كل على حدة - وليسوا جماعة، كما شارك الرجال والنساء سوياً في نشاطهم. وبينما تنازل السرابيون عن ممتلكاتهم لذويهم، جمع العيسويون ممتلكاتهم في ملكية مشاع بينهم. والأهم من ذلك أن العيسويين، بحسب ما جاء في كتابات فيلون السكندري ويوسيفوس الجليلي، كانوا جزءاً من الجماعة اليهودية في فلسطين ولم يتجاوز عددهم أربعة آلاف، بينما انتشر السرابيون في جميع أنحاء مصر ومن ثم خارجها في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وقد فرق فيلون بين الطائفتين صراحة. فعند حديثه عن العيسويين قال: "في هذه البلاد (فلسطين وسوريا) يعيش جزءاً هاماً من السكان اليهود، ومن بينهم - حسب ما يقال - أناس معينون، أكثر من أربعة آلاف يسمون عيسويين (Essenes)."[(١)]

بعد ذلك تحدث فيلون في كتابه عن "حياة التأمل" عن طائفة أخرى تعيش في مكان آخر: "بعد أن ذكرت العيسويين... سأستمر الآن... للحديث عن أولئك الذين اعتنقوا حياة التأمل".

(1) - Every Good Man is Free, Philo, XII. 75.

كل الأدلة تؤكد ظهور نظام الرهبنة المسيحي في مصر عند منتصف القرن الثالث، وهو النظام الذي صار ركناً رئيسياً للكنيسة الكاثوليكية خلال ألف عام من القرون الوسطى. كيف يمكن لنظام تبنته الكنيسة في جميع أنحاء العالم باعتباره من جوهر النظم المسيحية، أن يخرج من مجتمع هو نفسه لم يعتنق هذه الديانة؟ كما أنه من الصعب تصور كيف يمكن أن يقوم مجتمع لم يمض على خروجه من عالم الوثنية إلا سنوات قليلة، بإفراز حركة للنساك كان لها الفضل في إعادة تشكيل العالم المسيحي القديم بشكل كامل. فقد شكلت تعاليم الرهبان المصريين الخطوط العريضة لنظام الحياة الروحية في جميع أنحاء العالم المسيحي. كل هذا يدعم ما رأيناه من قبل، ويؤكد أن الشعب المصري قد ترك الوثنية واعتنق المسيحية منذ بداية الدعوة التي جاء بها القديس مرقص إلى الإسكندرية في القرن الميلادي الأول.

الحج المسيحي إلى مصر

ظلت مصر تعتبر الأرض المقدسة بالنسبة إلى الشعوب اليونانية وسكان آسيا الصغرى، ولكل من جماعات اليهود والمسيحيين، منذ العصور الفرعونية وحتى نهاية القرن الرابع للميلاد. وقد عثر رجال الآثار الإسرائيليون الذين عملوا في شبه جزيرة سيناء بعد حرب يونيو ١٩٦٧، على أدلة تبين مجيء الحجاج المسيحيين إلى جبل سيناء منذ القرن الميلادي الأول، عن طريق ميناء إيلات وخليج العقبة. كما كان هناك طريق آخر للحجاج عن طريق خليج السويس قادم من وادي النيل. ومن بين الحجاج الأجانب الذين سجلوا أسماءهم على الصخور في مواقع مختلفة من الطريق، أسماء سامية – عربية أو عبرية – وأسماء يونانية ورومانية. فقد جاء السياح في بدايات العصر المسيحي من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، لمشاهدة عجائب الحضارة الفرعونية وزيارة بقايا المعابد القديمة. تسلقوا هرم خوفو في الجيزة وتعجبوا أمام تماثلي ممنون غربي الأقصر، وحفروا أسماءهم على جدران مقابر وادي الملوك.

كان الحجاج يذهبون إلى الإسكندرية لزيارة معبد السرابيوم والمكتبة غربي المدينة، وكذلك الكهف الذي دفن فيه القديس مرقص في شرقها. وكان موقع المدفن في منطقة "بقولو" الذي كان يتعبد فيه المسيحيون الأوائل، هو المزار الذي يحرص القادمون من روما على مشاهدته. وهناك كتابات تشير إلى زيارة مدفن القديس مرقص ترجع إلى القرن الرابع، أقدم ما وصلنا منها ورد في تاريخ بالاديوس للوزياك في بداية القرن الخامس. كما ورد ذكر هذا المزار في شعر سان بولينيوس من مدينة نولا (٣٥٢ –٤٣١)، وهو من أقدم المصادر التي تحدثت عن استشهاد مرقص في الإسكندرية. وقد شرح جس جورج كريستو، وهو قس الكنيسة الأرثوذكسية الأمريكية، ما يراه كان سبباً لزيارة المسيحيين الأوائل لقبر الشهيد مرقص:

"كانت المسيحية في سنوات تكوينها ديانة مضطهدة، وقد دل على تلك الحقبة التصور الأساسي للشهادة، الشهادة بالموت وتعميد الشخص بدمائه. والأفراد الذين عانوا الشهادة قلدوا بأحكام تضحية المسيح وشهادته على الصليب... لهذا كان من الشائع خلال القرون الأولى للكنيسة بناء الكنائس فوق مقابر الشهداء، حتى يمكن الاحتفال بالتضحية الخالية من الدماء، بالقربان المقدس."[١]

كانت روما هي أول من أنكر على مصر مكانتها كأرض مقدسة للعالم القديم، والسبب هو أن مصر رغم هزيمتها وخضوعها لسلطة الرومان منذ العام ٣٠ قبل الميلاد، ظلت عاصمتها في الإسكندرية هي أهم مُركز ثقافي وديني في جميع أنحاء الإمبراطورية. واستمر السياح والحجاج في المجيء إلى مصر لزيارة معالمها ومعابدها، ومخاطبة علمائها وأهل الحكمة والمعرفة فيها. وتدعم مركز مصر بالنسبة إلى الزوار مع زيادة انتشار الديانة المسيحية، حيث تحتوي قصص الكتاب المقدس على روايات عن مولد موسى في مصر وخروج بني إسرائيل منها، إلى جانب زيارة العائلة المقدسة (يسوع وأمه مريم) التي ورد ذكرها في الإنجيل. إلا أن الوضع تغير بعد ذلك منذ النصف الثاني من القرن الرابع، على أثر اعتناق روما للعقيدة المسيحية. فبعد فترة قصيرة من اعتناق الإمبراطور قسطنطين للديانة الجديدة، سافرت أمه هيلينا إلى الأراضي الفلسطينية للبحث عن البقايا المسيحية هناك.

أدت حروب اليهود مع الرومان إلى تدمير معبد القدس سنة ٧٠ ميلادية وطرد اليهود منها، وقام الإمبراطور هادريان في القرن الثاني ببناء مدينة إليا كابيتولينا على أنقاض مدينة القدس، وأقام معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان في موقع الهيكل. وهكذا فحتى منتصف القرن الرابع لم يكن هناك موقع واحد في فلسطين يتفق مع ما جاء ذكره في كتابات العهد الجديد، وكان الزوار القلائل الذين يذهبون إليها يبحثون عن بقايا مواقع العهد القديم فقط. ونحن لا نجد في كتابات الأسقف يوسيبيوس

(1) The Consecration of a Greek Orthodox Church, Gus George Christo, Edwin Mellen, US, 2005, p. 3.

الفلسطيني في بداية القرن الرابع، ذكراً لأي مزار مسيحي هناك. وبعد مجمع نيقيا الذي دعى إليه الإمبراطور قسطنطين في آسيا الصغرى سنة ٣٢٥، أعلنت والدته هيلينا التي بلغت ٧٩ من عمرها، أنها عثرت على بقايا الصليب الذي مات عليه يسوع أسفل معبد روماني في القدس. وكانت الكنائس حتى ذلك التاريخ تستخدم الصليب المصري - مفتاح الحياة - رمزاً لمعاناة السيد المسيح، كما يتبين لأي زائر للمتحف القبطي بالقاهرة القديمة.

تم العثور على الأخشاب التي ساد الاعتقاد بأنها تمثل الصليب الذي وضع عليه يسوع، أسفل معبد بناه الرومان للمعبودة فينوس بالقرب من جبل المعبد، أو الحرم الشريف. وكان الاعتقاد السائد بين المسيحيين في تلك الفترة، يذهب إلى وجود قبر المسيح الذي قام منه، أسفل هذا المعبد الروماني. وبعد بضع عقود من الزمان من العثور على أخشاب الصليب، تمكن الرومان من الإعلان عن عثورهم على مواقع أخرى في فلسطين ورد ذكرها في كتب العهد الجديد. فقد عثروا على كهف في بيت لحم، قالوا إنه مكان ميلاد يسوع، ووجدوا كهفاً آخر بالقرب من جبل الزيتون في القدس، حيث يعتقد أنه المكان الذي تحدث فيه يسوع إلى تلاميذه عن نهاية العالم قبل صعوده إلى السماء. وفي كل هذه الأماكن تم بناء كنائس، تحولت منذ القرن الخامس إلى مزارات للحجاج والسائحين. وبالرغم من الإعلان عن هذه الكشوفات في أرض فلسطين، ظل الحجاج المسيحيون يتوافدون على مصر، حتى أولئك الذين جاؤوا لزيارة المواقع الجديدة في فلسطين.

وفي عام ٣٩١ عندما قرر الإمبراطور ثيودوسيوس محاربة العقائد القديمة، وقام المتظاهرون بتدمير معبد السرابيوم ومكتبته، اعتباراً منهم أنه مركز للوثنية والهرطقة. وبعد ذلك تم إحراق جميع المكتبات في باقي بلدان الإمبراطورية الرومانية، بما في ذلك روما نفسها. وهكذا ضاعت كل الكتب والمعلومات القديمة التي لها علاقة ببداية المسيحية في مصر.

في غياب الكتابات والحقائق التي كانت موجودة بالمكتبة، ضاعت المصادر المتزامنة مع الأحداث مما أعطى فرصة بعد ذلك لانتشار روايات مختلفة عن تاريخ الكنيسة المصرية الأولى. وظهرت بعض التفسيرات التي زعمت أن مصر ظلت وثنية في القرون الثلاثة الأولى للتاريخ الميلادي، وأن الجماعة المسيحية التي نشأت بها في تلك الفترة كانت، إما يونانية ويهودية وإما مصرية هرطوقية. واستمرت هذه الاعتقادات سائدة حتى العصر الحديث، عندما تمكن رجال الآثار من العثور على البقايا التاريخية القديمة في بلادنا، والتعرف على حقيقة تلك الفترة الغامضة. عشرات الآلاف من البرديات تم العثور عليها - باليونانية والقبطية - وتم ترجمة العديد منها، حيث تبين اعتناق المصريين للمسيحية منذ نهاية القرن الميلادي الأول. وقد أخبرني هيلموت كويستر أستاذ تاريخ المسيحية بجامعة هارفارد الأمريكية، عن قراره بإعادة كتابة أبحاثه السابقة بناء على الكشوفات الأثرية الحديثة في مصر وبخاصة مكتبة نجع حمادي.

صارت البهنسا (أوكسرينخوس - Oxyrynchus) واحدة من المراكز المسيحية الهامة في مصر منذ القرن الرابع، وهي إحدى المحطات التي زارتها العائلة المقدسة، كما ورد في الروايات القديمة. وهناك كتاب هام بعنوان "تاريخ الرهبان المصريين"، مجهول المؤلف يرجع إلى سنة ٤٠٠، جاء فيه: "جئنا إلى مدينة (بمنطقة) طيبة (الأقصر) تسمى أوكسيرينخوس كانت مشهورة بنشاط ديني طيب، لا يستطيع الوصف أن يعطيه حقه. وجدنا رهباناً داخل المدينة وفي كل المناطق الريفية المحيطة بها. المباني العامة والمعابد لعصر خرافي سابق، الآن يشغلها الرهبان. وفي كل أنحاء المدينة كانت هناك أديرة أكثر من البيوت. في هذه المدينة الواسعة كثيرة السكان التي يتم فيها تنظيم الصلاة العامة، هناك ١٢ كنيسة إلى جانب الأديرة التي بها أماكنها الخاصة للصلاة. لكن من البوابات مع ما أعلاها من فتحات، وحتى أصغر ركن في المدينة، لا يوجد مكاناً بدون رهبانه الذين يقدمون تسابيحهم ودعاءهم لله ليلاً

ونهاراً، مما يجعل المدينة بأكملها كنيسة واحدة لله... كل المواطنين مسيحيون... فليس هناك فرقاً فيما إذا قام الأسقف بالصلاة في الشوارع أو في الكنائس."

تقع مدينة البهنسا على بعد ١٦٠ كيلومتراً جنوب غربي القاهرة، وكانت خلال العصر القبطي مركزاً هاماً للمسيحية في مصر. الاسم الروماني أوكسيرينخوس يعني السمك الذي له أنف حاد، وهو اسم المدينة الرئيسية في الإقليم التاسع عشر بالصعيد. وسبب الاسم الروماني هو أن هذا النوع من السمك النيلي كان مقدساً في البهنسا، التي كانت تسمى "بير- مجد" في العصر الفرعوني وأصبح اسمها "بيمج" في القبطية. وقد عثر على بقايا المدينة القديمة خارج حدود البهنسا الحديثة، التي تمتد لمسافة ١٧ كيلومتراً غربي بني مزار على شاطئ بحر يوسف عند حافة الصحراء الغربية. وهناك روايات تدل على أن البهنسا عانت كثيراً في أثناء الاضطهاد الروماني في عصر الإمبراطور ديوكليتان. فقد استشهد عدد من القديسين في بهنسا في تلك الفترة، من بينهم إلياس القزم وإسحاق وإبيوس.

وهناك دلائل تشير إلى وجود عناصر غير مصرية في البهنسا في تلك الفترة، فقد عثر رجال الآثار على مسرح وملعب رياضي وآخر لسباق الخيل إلى جانب مينائين على بحر يوسف. كما عثروا على بقايا معابد فرعونية لآمون وسرابس وإيزيس وأوزوريس، إلى جانب معابد يونانية لديميتر وديونيسوس وأبوللو.[1]

ورغم تغيير طريق الحجاج منذ القرن الخامس على أثر بناء الكنائس في المواقع المقدسة بفلسطين، فقد استمر مجيؤهم إلى مصر لزيارة مواقعها كذلك. ولدينا رواية لسانت باولا - وهي سيدة رومانية من عائلة عريقة - جاءت للحج في مصر عند نهاية القرن الرابع، على رأس بعثة صغيرة تتكون من ابنتها وعدة فتيات عذارى. غادرت باولا وجماعتها مدينة روما بحراً في سبتمبر ٣٨٥، راغبة في اتباع طريق

(1) Manuscripts, Society and Belief in Early Christian Egypt, Colin H. Roberts, The Oxford University Press, 1979, p. 70.

النساك والراهبات، ووصلن إلى ميناء سلوقيا في شمال سوريا، ومنها إلى مدينة أنتيوخ حيث انضم إليهن سان جيروم. وبعد زيارتها للأماكن المقدسة التي تم الإعلان عنها في فلسطين، جاءت إلى مصر للتعرف على حياة الرهبنة. وصلت باولا وجماعتها إلى مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء، حيث قاموا بزيارة المواقع التي ورد ذكرها في كتب التوراة، المتعلقة بالنبي موسى وخروج بني إسرائيل من مصر.

وفي طريق عودتها من الإسكندرية، زارت باولا وادي النطرون في الصحراء الغربية، لمقابلة الرهبان والتحدث إليهم. فكما كانت زيارة مقابر الشهداء تمثل جزءاً هاماً من برنامج الحجاج في تلك الفترة، أصبحت الأديرة كذلك من المواقع الجديدة التي يحضرون من أجلها. وفي النطرون قابلها أب الاعتراف الأسقف إيسيدوروس، والعديد من الرهبان التي أقرت لهم بعدم أحقيتها بكل هذا الشرف. وبقيت باولا في وادي النطرون مع الرهبان فترة قصيرة، ثم ذهبت في طريق عودتها إلى فلسطين، حيث لحقت بالأب جيرم في بيت لحم.

كما وصلت إلينا رواية أخرى تتعلق بسيدة جاءت من شمال إيطاليا لتزور مصر وفلسطين كذلك، ثم أصبحت قديسة فيما بعد. فقد وصلت سيلفيا إلى مدينة القدس ما بين سنتي ٣٧٩ و ٣٨٨ حيث التقت مع سيدة إيطالية أخرى، واصطحبهما الراهب بالاديوس في زيارتهما إلى مصر. وصل الثلاثة عن طريق البحر إلى ميناء بلوظة في شمال سيناء، حيث زاروا منطقة جوشن بالقرب من مدينة القنطرة، التي ورد اسمها في التوراة كمقر لبني إسرائيل في أثناء وجودهم في مصر. بعد ذلك قاموا بزيارة مواقع الجبال المقدسة في جنوب سيناء، حوريب وفاران. ثم وصلت سيلفيا وصديقتها إلى الإسكندرية وبالطبع لزيارة قبر القديس مرقص، وبعدها سافرت جنوباً إلى منطقة طيبة في الصعيد.

ومن إسبانيا كذلك جاءت الراهبة إيجيريا في رحلة للحج بين سنتي ٣٨١ و ٣٨٤، وبعد زيارتها لجبل سيناء سافرت إلى إيليا كابيتولينا (القدس) ومن هناك إلى

القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. وفي واحدة من روايات القرن السابع التي حفظت قصة زيارة إيجيريا تقول القصة:

"كان التشوق إلى الله هو الذي حرك هذه الراهبة المباركة، وفي قوة الرب المجيد تحركت دون خوف، في رحلة كبيرة إلى الجانب الآخر من العالم... متأثرة بالشوق إلى صلاة الحاج عند جبل الرب الأكثر قدسية، تتابع خطى بني إسرائيل عندما ذهبوا إلى مصر... وفي خطوات لا استرخاء فيها مؤيدة بيد الله، أسرعت إلى تلك القمة الناتئة، التي يكاد أعلاها يناطح السحاب." بعد جبل سيناء زارت إيجيريا بعض المواقع الأخرى التي لها علاقة بخروج بني إسرائيل في سيناء، قبل سفرها إلى الخارج.

كما كانت المواقع التي ورد ذكرها في رواية هروب العائلة المقدسة إلى مصر، تعتبر مزارات للحجاج المسيحيين الذين حضروا إلى بلادنا. وتذهب القصة إلى أن المسيح بعد ولادته هرب إلى مصر، مع مريم العذراء وخطيبها يوسف النجار: "جاؤوا إلى مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها من جهة الفرما الواقعة بين بور سعيد والعريش، ومنها إلى مدينة بسطة التي كانت تقع بالقرب من مدينة الزقازيق الحالية. واتجهوا غرباً، فعبروا فرع النيل الشرقي عند سمنود. ثم عبروا فرعه الغربي حتى إذا بلغوا وادي النطرون، اتجهوا إلى الوجه القبلي فنزلوا بمدينة الأشمونين. ثم مضوا إلى قرية ميرة، المسماة الآن مير، وهبطوا بجهة قسقام، حيث يوجد الآن دير العذراء الشهير بالمحرق، وظلوا مقيمين هناك حتى ظهر ملاك الرب ليوسف وقال له: قم خذ الصبي وأمه وعد إلى اليهود، لأن هيرودس الذي كان يطلب نفس الصبي قد مات. فقاموا وانحدروا شمالاً حتى جاؤوا بابليون - المسماة الآن مصر القديمة - وكان بها حي لليهود لا يزال لهم فيه آثار إلى اليوم. ونزلوا في الموضع الذي فيه كنيسة القديس سرجيوس - المعروفة بكنيسة أبي سرجة - ثم اتجهوا إلى عين شمس،... فأقاموا هناك يستظلون بالشجرة المعروفة اليوم بشجرة مريم بالمطرية. ومن هناك انطلقوا إلى إسرائيل (اليهودية) عن طريق مديرية الشرقية، فالصحراء كما جاؤوا." (موسوعة تاريخ الأقباط لزكي شنودة، الجزء الأول الصفحتين ٤١ و ٤٢).

كانت مدينة الأشمونية - هيرموبوليس أيام الرومان - في الصعيد، من بين هذه المواقع الهامة في تلك الحقبة على الضفة الغربية للنيل. كما كانت مركزاً هاماً في أيام الفراعين، حيث وجد بها معبد لتوت إله المعرفة الذي يسمى هرمس في اليونانية. وفي النصف الثاني من القرن الثالث أصبحت الأشمونية مركزاً أسقفياً، وجرى بناء الكنائس داخل ساحة معبد توت الفرعوني كما حدث في معابد فرعونية أخرى. وتم بناء دير القديس سيرفيوس في مدينة الأشمونية إلى جانب ما لا يقل عن سبع كنائس أخرى، من بينها كنيسة كبيرة بها ثلاثة مماشي. ولا شك أن لقصة زيارة العائلة المقدسة لمدينة الأشمونية أثراً هاماً على أهمية هذه المدينة في صعيد مصر، خصوصاً بالنسبة إلى الحجاج الذين قدموا بزيارتها. في كتاب "تاريخ رهبان مصر" مجهول المؤلف والذي يعود إلى سنة ٤٠٠، ورد وصف لزيارة سبعة حجاج جاؤوا من فلسطين قبل نهاية القرن الرابع لمقابلة الشخصيات المقدسة في مصر، ومشاهدة مناطق الأديرة. وعندما وصلت المجموعة إلى الأشمونية قال الكاتب:

"شاهدنا كذلك رجلاً مقدساً في طيبة اسمه أبوللوس، داخل هيرموبوليس (الأشمونية) التي جاء إليها المخلص مع مريم ويوسف محققين نبوءة أشعياء."

من كل هذا يتضح أن الأشمونية منذ ذلك التاريخ المبكر، كانت معروفة بسبب زيارة العائلة المقدسة لها. ولدينا مصدر آخر يتحدث عن زيارة العائلة المقدسة للأشمونية، المؤرخ المسيحي زوسومن الذي كتب عند منتصف القرن الخامس كتاباً عن تاريخ الكنيسة أهداه إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني جاء فيه:

"توجد شجرة في هيرموبوليس بإقليم طيبة تسمى بيرسس، مع الأفرع والأوراق والجزء الأصغر من اللحاء، يقال إنها تشفي من الأمراض عندما يلمسها مريض، لأن المصريين يقولون إن يوسف (النجار) هرب من غضب (الملك) هيرود، مع المسيح ومريم أم الرب المقدسة، وذهبوا إلى الأشمونية. وعندما دخلوا من البوابة انحنت هذه الشجرة الكبيرة... لعبادته."

الفن القبطي

بعد تجاهلهم للعصر القبطي في التاريخ المصري، لم يهتم المؤرخون الكلاسيكيون بمعرفة العناصر الحضارية والطبيعة الثقافية لهذا العصر. ولأن مصر كانت تابعة خلال العصر القبطي للرومان ثم للبيزنطيين، اعتبر الباحثون الكلاسيكون فنون وثقافات هذا العصر رومانية وبيزنطية، وليست مصرية. وهم لا يعتبرون من عناصر الفن والثقافة التي أنتجها الشعب المصري في تلك الحقبة قبطياً، إلا ما يتعلق منها مباشرة بالديانة المسيحية. وفي هذه الحالة يحصر هؤلاء الكتاب مرحلة إنتاج الفن القبطي خلال الفترة ما بين القرن الرابع والقرن السابع. على أنه في السنوات الأخيرة صار مؤرخو الفن يستخدمون تعبير "الفن القبطي" للدلالة على الفن المسيحي في مصر في العصرين المبكر والوسيط، سواء كان مسيحياً أم وثنياً.

ما أراه أنا هو أن الفن القبطي يتمثل في كل النتاج الفني الذي أفرزه الشعب المصري، منذ سقوط حكم الفراعنة ٣٠ قبل الميلاد، وحتى بداية العصر الإسلامي في ٦٤١ ميلادية. وحتى فيما يتعلق بالنتاج الفني لأبناء الجاليات الأجنبية التي استقرت في مصر لأجيال عديدة وامتزج أبناؤها وتزاوجوا مع المصريين، لا يمكننا النظر إليهم على أنهم أجانب طوال حياتهم، ويصبح نتاجهم الفني نتاجاً مصرياً. فهناك الملايين الذين هاجروا إلى العالم الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا، هل يمكننا اعتبار نتاجهم أجنبياً؟ وحتى في مصرنا الحديثة، فهناك أحفاد الأتراك واليونان والرومان وغيرهم الذين تربوا وتعلموا في مصر، هل يمكننا اعتبار هؤلاء أجانب؟ وعلى هذا لا يمكننا اعتبار فن الإسكندرية غير مصري، لمجرد وجود مهاجرين في تلك المدينة، اختلطوا بالمصريين وتزاوجوا معهم وذابوا مع الزمن في الكيان المصري. كما أن الفن المصري لا يقتصر على النتاج المتعلق بالعبادة

والعقيدة، فكل ما أفرزه الفنانون المصريون في العصر القبطي، أي العصر المصري بعد سقوط حكم الفراعنة، هو فناً قبطياً.

وأول من لاحظ المعالم الخاصة للفن القبطي، كان رجال الآثار عند نهاية القرن التاسع عشر بعد العثور على نماذج عديدة منه في مختلف نواحي البلاد. وكان الفرنسي جاستون ماسبيرو هو أول هؤلاء، وقد عمل على الحفاظ على البقايا التي تم الكشف عنها. وعندما عين ماسبيرو مديراً للآثار في سنة ١٨٨١م، قرر تخصيص قاعة في متحف بولاق لعرض نماذج الفن القبطي. كما شجع ماسبيرو علماء المصريات للقيام بأعمال كشفية، تم خلالها الحفاظ على دير سان أبوللو في باويت (على بعد ١٠ أميال جنوب غربي أسيوط) ودير سان جرمية على هضبة سقارة. وبعد ١٩ سنة تم إنشاء المتحف القبطي في مصر القديمة سنة ١٩١٠، لحفظ بقايا العصر القبطي به، وقد تم توسعته في ١٩٣٧ كما أعيد ترميمه وإعداده مؤخراً. وفي المتحف القبطي الذي يحتوي على الكثير من البقايا الهامة، جرى تقسيم المعروضات بحسب نوع العمل: خشبي، معدني، عاجي، قماش، فخار، زجاج، مخطوطات.

الفن الفرعوني

تغيرت معالم الفن المصري كثيراً خلال العصر القبطي، وتمايزت عما كانت عليه في العصر الفرعوني القديم. فقد أصبح الفن حراً لا يخضع لتحكم الكهنة، مما نتج عنه ظهور أكثر من طراز فني واحد في تلك الفترة. كانت جميع أنواع الفنون في العصر الفرعوني تخضع لقواعد صارمة، ورقابة شديدة من جانب الكهنة. ذلك أن الفن الفرعوني كانت له وظائف محددة، رسومات وأعمال نحت جنائزية تتعلق بالحياة الأخرى، لهذا لم يكن المقصود من هذه الأعمال الفنية التعبير عن الواقع، بل الحلول مكانه. وفوق كل شيء كان الفن الفرعوني مهتماً بضمان استمرار العالم في توازنه، بما في ذلك الآلهة والفراعين والناس العاديين. لهذا كان على الفنان أن يصور الأشياء، لا كما يراها هو، ولكن كرموز متكاملة، ليكون لها معنى واستمرارية وليس

واقعاً يومياً. وحتى يحققوا هذه النتيجة، عبر الفنانون في العصر الفرعوني عن كل جزء من الموضوع الذي يقدمونه من الزاوية الأكثر تمثيلاً له. فبينما كان جذع الإنسان وعيناه أفضل تمثيلاً من الواجهة، فإن الذراعين والساقين تظهر أفضل من الجانب.

اهتم الفن الفرعوني قبل كل شيء آخر، بالحفاظ على النظام المقدس للعالم ومنع الفوضى. ومن الضروري للديانة في هذا النطام أن تنفذ في كل نواحي الحياة، حتى تكون داخل المجتمع والسياسة، بدلاً من أن تكون حالة منفصلة. ومن الناحية النظرية، كان للفرعون وحده الذي يعتبر الكاهن الأكبر لكل الديانات الحق في أن يلازم الآلهة، وإن كان في الواقع قد تخلى عن دوره هذا للكهنة الذين يشرفون على طقوس العبادة. لهذا صار المعبد وكهنته هو العامل الرئيسي للحفاظ على الاستقرار في العالم، يقوم كل يوم بتلبية حاجات الآلهة، التي كان يعتقد بحلولها في التماثيل المشيدة لها. كما كانت الطقوس الجنائزية من تحنيط وقرابين تهدف إلى حماية المتوفى في رحلته في العالم السفلي من المخاطر، حتى يتمكن من السير آمناً في مركب رع إله الشمس.

ظهور الفن القبطي

انتهى العصر الفرعوني سنة ٣٠ قبل الميلاد بعد هزيمة كليوباترا السابعة ومارك أنتوني في معركة أكتيوم باليونان، وتحولت مصر إلى مقاطعة رومانية. منذ ذلك التاريخ تولى حكم مصر والي يعينه الإمبراطور الروماني، كان مقره بالإسكندرية. ومع نهاية حكم الفراعنة تحطمت مؤسسة الكهنة المصرية القديمة تدريجياً، ولم يعد النشاط الفني مرتبطاً بالمعبد أو الدولة. إلا أن الوضع في مدينة الإسكندرية التي ظلت عاصمة البلاد ومركز إدارتها، كان مختلفاً حيث أن الإدارة الرومانية كانت تتولى تنفيذ بعض النشاطات الفنية.

بعد انهيار مؤسسة الكهنة تحرر الفنان المصري ولم يعد ملتزماً بأنماط فنية بعينها، ولا بأبعاد ومواقف مقدسة عليه الالتزام بها. وفي بداية العصر القبطي – مع غياب رقابة الكهنة – لم توجد سلطة مركزية بديلة لتوجيه الفنانين، ولا مدرسة تقدم

النماذج يمكن لهم اتباعها. وهكذا ولد الفن القبطي من محاولات متفرقة للفنانين غير خاضعة لأي توجيه، فكانت الطرز التي قدموها في البداية غير ناضجة أو مهذبة، جرى تطويرها مع مرور الزمن. كما اختلفت أنواع الفن القبطي من منطقة إلى أخرى، لعدم وجود سلطة مركزية خاصة في الصعيد، حيث كانت النماذج الأولى تختلف بشكل كبير عما تلاها.

عند بداية القرن الثالث السابق للميلاد، أنشأ البطالمة مدينة الإسكندرية لتكون أول مدينة في العالم تسكنها أجناس مختلفة - كوزموبوليتان - حيث جاء الناس من جميع بلدان العالم، للزيارة أو للإقامة الدائمة. هؤلاء الناس الذين قدموا من مقدونيا، بلاد اليونان، إيطاليا، ليبيا، بلاد الشام، آسيا الصغرى، بلاد العرب، أفريقيا، وبلاد فارس أحضروا معهم ثقافاتهم وقدرتهم على الإبداع الفني. ومع هذا فقد عملوا سوياً داخل بوتقة الحضارة المصرية، لإنتاج ثقافة الإسكندرية التي صار لها طبيعة خاصة وشكل متميز، والتي صارت عالمية في انتشارها. هذا النتاج الثقافي الفريد الذي ظهر في عاصمة البطالمة، يصر الباحثون الكلاسيكيون على اعتباره نوعاً جديداً من حضارة اليونان - وليس المصريين - أطلقوا عليه اسم الحضارة الهيلينية؛ وعلى هذا فقد اعتبروا النتاج الفني السكندري في العصر القبطي - أي تحت سيطرة الرومان والبيزنطيين - نتاجاً هيلينياً يونانياً.

شعر فنان العصر القبطي بحريته في العمل واختيار الطراز الذي يناسبه مع غياب رقابة الكهنة، مما جعل الفن القبطي متعدد الأشكال والطرز. وفي هذه الفترة حدث انفتاح ثقافي على حضارات العالم، ولم يتردد فنان العصر القبطي في استخدام نماذج فنية أجنبية، خصوصاً من بلدان شرقي البحر المتوسط وإن ظل النتاج الفني في الصعيد محافظاً على التقاليد القديمة، كما اتسم بنوع من التناسق يقترب من التجريد. بعض الأشكال تبدو مفرطحة وبعض التصاميم تكتسب بساطة وطبيعة زخرفية، واستمرت الموضوعات الفنية تمثل نماذج وثنية إلى جانب النماذج المسيحية الجديدة.

وفي بعض الرسومات التي وجدت على الجدران، نجد مشاهد تمثل قصص العهد القديم وكذلك صور الأم وطفلها. كما أن بعض الكشوفات الأثرية في البجوات والبهنسا وسقارة وباويت، أظهرت نماذج للفن القبطي على شكل تماثيل وأقمشة وقطع من العاج. وبالنسبة إلى التصاميم فإن الرسومات القبطية تختلف عن الفرعونية في تأكيدها على زخارف النبات والحيوان، وكذلك قلة الاهتمام بالشكل الطبيعي للإنسان وتبسيط الحدود والألوان والتفاصيل.

وبسبب الانفتاح على الحضارات الأخرى، تميز الفن القبطي بالتأثيرات المتعددة التي ساهمت في تكوين أساليبه، فهناك قطع تم تنفيذها على الطراز اليوناني أو بتأثير الفن الكلاسيكي، تتضمن حفراً على الحجارة لكيوبيد ملاك الحب وهو يحمل طاقة من الورود، وهناك عناقيد من عنب الآلهة اليونانية باخوس وليدا وهرقل. كما عثر على آثار لها طابع مصري - يوناني ممزوج، مثل لوحة مفرغة ربما كانت تستخدم لتزيين جدران الكنائس، ولوحات تحتوي على أشكال أبي الهول والأسماك التي كانت رمزاً للمسيح. أما اللوحات الجنائزية فقد ظلت تنفذ على الطريقة الفرعونية القديمة، وقد عثر على الكثير منها في مناطق عديدة من البلاد.

ولعبت الظروف الاقتصادية دوراً هاماً في ظهور بعض أشكال الفن الشعبي، فلم يعد فنان العصر القبطي يعمل في المعابد والقصور والتماثيل العملاقة، مما أدى إلى عدم استخدام المواد غالية الثمن التي كان الملوك الفراعنة يوفرونها له. وانتقلت الملامح الأصيلة للفن القبطي بعد ذلك إلى الفن الروماني والبيزنطي، حيث غالباً ما تظهر أشكال الإنسان من أمام، وتتسع العيون بشكل ملحوظ. كما تظهر الأجسام في أحجام غير متناسبة، مقارنة بما هو معهود في الفن الكلاسيكي اليوناني والروماني.

على الجانب الآخر فنحن لا نجد أن نوعية الفن القبطي عند مستوى واحد في كل الأحوال، بينما تظهر الرسومات وأعمال الحفر التي تزين الأديرة والكنائس في

الصعيد تعبيراً شخصياً عن الإيمان. وقد وصل الفن القبطي إلى مرحلة النضج فيما بين القرنين الخامس والسابع، التي تعتبر عصره الذهبي.

في بدايات انتشار المسيحية، كانت طقوس الدفن تتضمن كتابة اسم المتوفى ولقبه باليونانية أو القبطية، وكذلك التاريخ الذي مات فيه – فوق لوحة توضع بالمدفن. كما تضمنت هذه اللوحة تصميماً فنياً: شكل لشخص عادة ما يرتدي لباساً مثل الأرستقراطي اليوناني؛ مضطجع على سرير وهو يمسك بكأس أو بعنقود من العنب، وأحياناً ما يكون بجانب هذا الشخص رسم لأنوبيس حارس الموتى عند المصريين القدماء، ورسم آخر لحورس ذى رأس الصقر. وفي حالات أخرى نجد موضوعات فنية فارسية مرسومة على لوحة القبر، في بدايات العصر القبطي. فبالإضافة إلى أن الفرس كانوا يحتلون مصر قبل وصول الإسكندر، فقد سافر العديد من الفنانين المصريين للعمل في بلاد الفرس في بداية القرن الثالث، وعادوا متأثرين بما شاهدوه هناك. وقد أدى تداخل تكوينات متناقضة، كلاسيكية، فرعونية، يونانية، شامية وفارسية إلى مسار لا يمكن تحديده في الفن القبطي، بسبب صعوبة تحديد وحدة الطراز الفني.

الرمزية المسيحية

كانت الإسكندرية، وليست روما، هي التي تلعب الدور القيادي في تحديد المسائل اللاهوتية، خلال التاريخ الأول للمسيحية. إذ كانت الإسكندرية هي المركز الأول للاهوت المسيحي خلال القرون الثلاثة الأولى، كما أصبحت أول مركز أممي – غير يهودي – للمسيحية في العالم. وقد اعترف مؤرخو الكنيسة بوجود عناصر مصرية خالصة في الفن المسيحي، في كل بلدان الإمبراطورية الرومانية. ومن السهل لأي شخص ملاحظة عناصر الفن الفرعوني التي أثرت على الإبداع المسيحي منذ بدايته. وعلى سبيل المثال، فمن العروف أن الصليب المصري القديم – عنخ مفتاح

الحياة – كان هو الصليب الذي استخدمته جميع الكنائس المسيحية في القرون الثلاث الأولى رمزاً لقيامة المسيح:

"من المتفق عليه أن استخدام المسيحيين للصليب (الروماني) كرمز للمسيح المخلص، لم يتم استخدامه بشكل عام حتى زمن قسطنطين. وعلى ما يبدو أن المصريين هم أول من استخدم شكلاً من عنخ، العلامة الهيروغليفية التي تسمى أحياناً "مفتاح الحياة" أو "الحياة في عالم المستقبل" كحلقة اتصال بين العقيدة القديمة والعقيدة الجديدة. وعندما تم تدمير معبد سرابس بأمر من الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٩١م)، تم الكشف عن بعض أحرف معينة يسمونها هيروغليفية، لها شكل الصلبان. ادعى المسيحيون أن هذا دليلاً على أن المبنى الكبير (السرابيوم) كان يتبع عقيدتهم يوماً ما. ولكن بعض الوثنيين الذين تحولوا إلى المسيحية وكان في استطاعتهم قراءة الكتابات القديمة، وفسروا الكتابة. قالوا إن الحرف الذي يشبه الصليب كان في الماضي يعني الحياة القادمة."(1)

من النماذج المصرية الأخرى للفن المسيحي في بدايته، أن الروح القدس كان يرمز لها عن طريق طائر له جناحان، تماماً كما كان المصريون القدماء يعبرون عن الروح "با" في مقابرهم. وتوجد رسومات لميخائيل رئيس الملائكة، وهو يقوم بوزن أرواح الموتى في ميزان، وهذا المشهد يشبه ما نجده في كتاب الموتى الفرعوني عندما يقوم توت إله الحكمة بوزن قلب المتوفى في قاعة الحساب. كما توجد مشاهد تمثل المسيح منتصراً على الحيوانات المفترسة، بالمطابقة لمنظر حورس في مسلة ميتيرينخ منتصراً على التمساح. أما تماثيل سان جورج في صراعه من التنين، فنراه موجوداً في المناظر التي تبين حورس في صراعه مع ست إله الشر الذي قتل أوزوريس.

(1) The Cross in Egypt, Mrs. Butcher (Edith Louisa). The Cross in Italy, by W. M. Flinders Petrie, Macmillan & Co., London and New York, 1916, p. 97.

يظهر المسيح في الفن القبطي منتصراً دائماً مولوداً من جديد، صادقاً محباً للخير، وهذه من الصفات التي استمرت مراعاتها في هذا الفن. وعادة ما نرى يسوع المسيح في الفن القبطي، جالساً على العرش تحيط به الملائكة أو وهو يبارك شخصاً بجانبه. فبخلاف ظهوره في روما غالباً على الصليب، نرى يسوع في الفن القبطي ملكاً منتصراً في مجده. وفي منطقة كرموز بالإسكندرية توجد قبة على شكل نصف دائري داخل غرفة الانتظار، التي غالباً ما كانت تمثل مصلى أو كنيسة صغيرة. يزينها إفريز يبين معجزات المسيح التي سبقت العشاء الأخير والقربان المقدس. وقد صور المسيح هنا جالساً على عرشه يحيط به القديسان بطرس وأندرو، اللذان يقدمان له رغيفاً من الخبز وسمكاً. وعلى يسار هذا المنظر، كتابة تتحدث عن المسيح والقديسة مريم العذراء وهما وسط المدعويين الذين شاهدوا معجزة تغيير المياه إلى نبيذ في قانا.

هذه الأعمال الفنية التي عثر عليها في مصر، لم يوجد مثيلها في أي بلد مسيحي آخر. كما قدمت الأعمال الفنية القبطية القديسين والشهداء والرهبان، ووضعتهم في مركز مرموق في المجتمع. وتحولت أعمالهم البطولية ومعجزاتهم إلى صور وأغنيات فوق جدران المعابد القديمة، التي تم تحويلها بعد ذلك إلى كنائس ومصلات.

المسيحيون في المعابد الفرعونية

عندما تم هجر المعابد الفرعونية التي أهملها الرومان، وراحت تتساقط نتيجة لعدم وجود من يحافظ عليها، تجمع المسيحيون الجدد داخلها واستخدموها أماكن لعبادتهم، في المراحل الأولى قبل بناء الكنائس. تم تحويل المعابد الفرعونية إلى أماكن للعبادة المسيحية في أماكن عديدة من البلاد، في دير البحري، مدينة هابو، الكرنك، دندرة، فيلة، إسنا، وإدفو. وفي بلاد النوبة تحولت غالبية المعابد المنحوتة في الصخور إلى كنائس، وتم رسم المناظر المسيحية بها.

وجـــوه الفيـــوم

من الطبيعي أن يؤدي سوء الفهم بالنسبة إلى عصور التاريخ المصري، إلى عدم إدراك طبيعة الفن والثقافة المصرية. فبعد أن قرر الكلاسيكيون اعتبار الفترة ما بين نهاية الحكم الفرعوني سنة ٣٠ ق. م. وبداية العصر الإسلامي في ٦٤١ م. عصراً يونانياً رومانياً، كان من الطبيعي لهم أن يعتبروا النتاج الثقافي لهذا العصر ليس مصرياً وإنما يونانياً رومانياً. وتعتبر حالة وجوه الفيوم التي تم إنتاجها في تلك الفترة واحدة من نتائج سوء الفهم هذا. جاءت الرسومات التي عرفت باسم وجوه الفيوم من نفس المناطق التي عثر رجال الآثار بها على مئات البرديات المسيحية، تم إنتاجها خلال القرون الثلاث الأولى للتاريخ الميلادي، وكانت توضع فوق رؤوس المومياوات.

في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر وصل إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، عدداً من رسومات البورترية ذات جمال خاص، لكنها مجهولة الأصل. وسرعان ما تبين أن جميع هذه الرسومات التي وزعت على متاحف العالم جاءت من مكان واحد، هو مصر. ولما كانت المجموعة الأولى من هذه الرسومات الملونة التي تصور وجوهاً للموتى قد تم العثور عليها في مقابر مدن الفيوم، فقد جرى تسميتها بروتريهات الفيوم. وعند دراسة هذه الوجوه تأكد أن تاريخها ينحصر في القرون الميلادية الثلاث الأولى. وكانت منطقة الفيوم في تلك الحقبة من الزمان منتعشة بالحركة التجارية والثقافية، تسكنها أقوام يونانية ورومانية وليبية وشامية ونوبية ويهودية، إلى جانب المواطنين المصريين.

كان بيترو دللا فالي (١٥٨٦-١٦٥٢) وهو أرستقراطي إيطالي، قد عثر على نماذج أخرى من وجوه الفيوم في منطقة سقارة، التي كانت بمثابة مدافن لمدينة منف القديمة، لكن أحداً في ذلك الوقت لم يهتم كثيراً بما أحضره معه إلى إيطاليا من هذه

الوجوه. وفي سقارة أيضاً تم العثور بعد ذلك على نوع آخر من هذه الرسومات، وعدد قليل من الأكفان التيلية رسم عليها الميت بحجمه الطبيعي، يحيط به أوزوريس إله الموتى وأنوبيس حارسهم. وفي القرن التاسع عشر تزايد عدد السائحين القادمين إلى مصر، وتزايد عدد تجار الأنتيكات الذين اهتموا بالبحث عن المومياوات وبيعها للسياح. وفي هذه الفترة تم العثور على مئات الرسومات من وجوه الفيوم التي بيعت للأجانب، وبخاصة لثيودور جراف. كان جراف النمساوي مهتم بجمع هذه الرسومات، وتمكن سنة ١٨٨٧ من شراء أكثر من ٣٠٠ لوحة ونظم معرضاً متنقلاً في أوروبا وأمريكا لبيعها.

ثم قام فليندرو بيتري رجل الآثار البريطاني الشهير، بالكشف عن مجموعة من ١٦٠ مومياء كاملة سنة ١٩١١ في مدينة هوارة بالفيوم، التي تعتبر منطقة المدافن لمدينة أرسينوي الرئيسية بالفيوم. كما تم العثور على وجوه أخرى في أخميم بالصعيد، بينما جمع هنري سولت – الدبلوماسي البريطاني – مجموعة ثانية في أوائل القرن التاسع عشر، وجد بعضاً منها طريقه إلى متحف اللوفر في باريس. أما الفرنسيان ألبرت جين جايت وإيميل جويمت فقد عثرا على مومياوات كثيرة في أنتينوبولس بالصعيد كذلك، قاما بعرضها في باريس سنة ١٩٠٠. والآن توجد وجوه الفيوم موزعة على العديد من متاحف العالم، وبخاصة في المتحف البريطاني، المتحف الملكي بإسكتلندا، متحف المتروبول في نيويورك، اللوفر في باريس، المتحف المصري بالقاهرة.

تم العثور على أكثر من ألف رسم لرجال ونساء وأطفال، في صورة جميلة وواضحة، رسمت بطريقة واقعية وأسلوب حي متناسق. وتعتبر وجوه الفيوم أهم مجموعة من الرسومات التي وصلتنا من العالم القديم، وهي محفوظة لا تزال في حالة جيدة. وهي تعبر عن الطراز الفني للإسكندرية في نظرتها المباشرة، مصرية في غرضها حيث تتعلق بتحنيط الموتى وخلود الروح، تظهر أمام أعيننا الفنان والإنسان المصري كما كان منذ حوالي ألفي عام مضت.

هذه الرسومات تم تنفيذها بدهانات ألوان غير مصنعة أخذت من مواد طبيعية جرى خلطها بشمع ساخن، ونفس هذا الأسلوب في الرسم صار هو القاعدة التي بناء عليها تم عمل الأيقونات بعد ذلك في مصر. تم الرسم على ألواح خشبية أو قطع من القماش، كانت توضع فوق التابوت بعد الوفاة. ومما لا شك فيه أن طريقة الرسم تتبع ما كان سائداً في الإسكندرية، التي تطورت بعد ذلك لتشكل طريقة جديدة ظهرت في الفن القبطي. الأشخاص الذين تم رسمهم بنظراتهم الهادئة الخالدة، أهم صفة قيمة للرسم الطبيعي. وفي هذا النوع الجديد من الرسومات الطبيعية، لا نرى آلهة أو ملوكاً وعظماء، فهؤلاء أناس عاديون يقدمهم الفنان أبطالاً لأعماله، لأول مرة في تاريخ الفن القديم. فهذه الرسومات تمت لأناس عاديين في أثناء حياتهم وهم صغار، لتوضع فوق مومياواتهم بعد موتهم. هم الذين طلبوا من الرسام القيام بها، وهم الذين دفعوا أثمانها، وهم الذين جلسوا أمام الرسامين ساعات طويلة لرسمهم.

اختلف المؤرخون والنقاد الفنيون في تحديدهم لأصل وجوه الفيوم. ورغم أن هذه الرسوات جميعها تم العثور عليها في مصر (الفيوم والصعيد) فهناك من يزعم أنها يونانية أو رومانية. فأولئك الذين يعتبرونها يونانية، يعتمدون على كونها رسوماً طبيعية تشبه الفن اليوناني، بينما يعتمد القائلون بأنها رومانية على طراز الشعر الموجود في هذه الرسومات والملابس الرومانية.

"(الطريقة) الطبيعية التي هي سر خصوصية أفضل أعمال الفيوم، كانت موروثة مباشرة من الرسام اليوناني المشهور في القرن الرابع قبل الميلاد، أبللز ومعاصريه. فقد جاء الفنانون اليونان إلى مصر مبكراً منذ القرن السابع (قبل الميلاد)، ولكنهم لم يحضروا بأعداد كبيرة قبل الغزو المقدوني في القرن الرابع، خصوصاً من أجل نشر الثقافة اليونانية... وفنانو الفيوم، يمكن أن يكون بعضهم جاء من عائلات كانت مقيمة في مصر لعدة قرون، لا بد وأنهم ورثوا أو تشبعوا

الكثير من الوسائل والطرز اليونانية. فمن المؤكد أن مدرسة الإسكندرية... كانت (تمثل) تقاليدهم المباشرة."(١)

تؤكد يوفروسين دوكسيديس وهي باحثة يونانية، ارتباط وجوه الفيوم بطقوس الدفن عند قدماء المصريين:

"في طقوس الموتى المصرية كانت وجوه الفيوم بالتحديد (تعتبر) أدوات توقير، لأنها كانت بمثابة ممثل خالد للميت لكونها جزءاً من المومياء التي توجد معها... كان الرجال الميتون يتثبتون في شخصياتهم مع أوزوريس وبالتالي يتشبعون بألوهية الإله، وكانت النساء المتوفيات تتثبت شخصياتهن مع إيزيس وربما مع حات حور الإلهة البقرة."(٢)

إذا كانت وجوه الفيوم قد رسمت في مصر، وقام بتنفيذها فنانون مصريون، حسب الأسلوب السكندري، وكان الرسم يتعلق بموضوع مصري وهو التحنيط، فكيف يمكن القول إنها ليست مصرية بل يونانية أو رومانية؟

لا يكفي القول بوجود فنانين في مصر أحفاد لمهاجرين يونان حتى تصبح وجوه الفيوم يونانية، ولا يمكن الاعتماد على طريقة تصفيف الشعر أو نوعية الرداء الموجود في الرسم لإثبات أنها رومانية المنشأ. فقانون حماية حقوق الإبداع على سبيل المثال، يعطي الأحقية لمن يثبت أنه سبق الآخرين في تنفيذ العمل المختلف عليه. فمن يستطيع إثبات وجود نموذج تم عمله في تاريخ يسبق الآخرين، تثبت أحقيته في الملكية. وإذا نظرنا إلى وجوه الفيوم نجد أنه لم يتم العثور على نماذج فنية تشابهها، تم إنتاجها في أي بلد آخر قبل تاريخ ظهورها في مصر. كما لم يتم العثورعلى أية نماذج للأسلوب الفني المستخدم في رسم هذه الوجوه في أي مكان في العالم غير مصر. وفي

(1) - The Mysterious Fayum Portraits, Euphrosyne Doxiadis, Thames and Hudson, London, 1995, p. 84.

(2) - The Mysterious Fayum Portraits, Euphrosyne Doxiadis, Thames and Hudson, London, 1995, p. 39.

داخل مصر نفسها، ورغم استخدام الفنانين للطريقة الفنية التي ظهرت في مدينة الإسكندرية خلال حكم البطالمة، فقد وجدت جميع هذه الرسومات إما في منطقة الفيوم بوسط البلاد أو في الصعيد جنوباً.

أما فيما يتعلق بتصفيف الشعر والرداء، فمن الطبيعي للمصريين وحتى للمهاجرين الذين يعيشون في مصر، استخدام عناصر الموضة الرومانية، التي كانت غالبة في تلك الحقبة كون الرومان هم حكام البلاد. وقد تكون هناك رسومات لأناس من الرومان بالفعل بين وجوه الفيوم، لكن هذا لا يعني أن الفنان الذي قام بتنفيذ العمل، أو أن الأسلوب الفني المتبع، كان رومانياً. بل على العكس من ذلك تماماً، فحتى الأجانب الذين تم رسمهم بين وجوه الفيوم، لا بد وأنهم تأثروا كثيراً بعناصر الثقافة المصرية حتى يقوموا بتحنيط أنفسهم لدفنهم على الطريقة المصرية.

صحيح أن الأسلوب الفني الواقعي الذي تم تنفيذ وجوه الفيوم على أساسه يختلف تماماً عن الأسلوب الفرعوني الكلاسيكي القديم، لكننا لسنا في حاجة إلى النظر إلى اليونان والرومان للتعرف على مصدر هذا التغيير؛ فنحن نرى ظهور مدرسة فنية واقعية جديدة في الإسكندرية، ثلاثة قرون قبل وجوه الفيوم، ولدينا العديد من النماذج الفنية السكندرية الواقعية، سواء في الرسومات أو التماثيل. وبعد زوال النظام الديني في مصر على أثر سقوط الحكم الفرعوني، تحرر فنان العصر القبطي من القيود التي حددها الكهنة في العصر الفرعوني. ومن المؤكد أن وجوه الفيوم تمثل طرازاً فنياً جديداً لم يأت من خارج البلاد، بل ظهر في مصر نفسها خلال المرحلة الأولى للعصر القبطي.

وهناك بعض الباحثين الذين يعتقدون - خلافاً للاتجاه الغالب - بأن فن العصر القبطي كان له تأثير على كل من الفن الروماني والبيزنطي. ونحن نلاحظ أن وجوه الفيوم بوجوهها الكاملة وأعينها المتسعة، أصبحت علامة مميزة لكثير من

النتاج المسيحي الأول في العالم كله، يعتبرها مؤرخو الفن الآن نموذجاً للأيقونات البيزنطية. ومع أن هذه الأيقونات تم إنتاجها في مصر قبل مدة طويلة من ظهور الدولة البيزنطية، إلا أن البيزنطيين استخدموا نفس الأسلوب والشكل بعد ذلك في القسطنطينية.

ثورة العمارنة الفنية

إذا كان بعض الفنانين في بلاد اليونان قد استخدموا أسلوباً واقعياً في عملهم خلال القرن الرابع قبل الميلاد، فهناك فنانون مصريون استخدموا نفس هذا الأسلوب قبل ذلك بألف عام. فعندما قام الملك إخناتون بإلغاء النظام الديني القديم عند منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ظهرت مدرسة فنية غير ملتزمة بقواعد الفن الفرعوني في مصر القديمة. ولما كان إخناتون يعتقد بإله واحد ليس له صورة، فقد أغلق المعابد وسرح الكهنة وأعطى الفنانين الحرية في الخروج على القواعد الفنية السابقة. أدت الثورة الدينية لإخناتون إلى ظهور مدرستين جديدتين في الفن، واحدة رومانتيكية تميل إلى المبالغة وأخرى واقعية تحاكي الطبيعة. خلال حكم إخناتون حقق الأسلوب الفني تغيراً مفاجئاً من الطريقة القديمة بتصوير الناس في شكل مثالي، إلى أسلوب جديد إما واقعاً يحاكي الطبيعة وإما رومانتيكياً يبالغ في تصويرها إلى حد الكاريكاتير في بعض الأحيان. جاء أسلوب فن العمارنة مختلفاً تماماً عما سبقه وعما جاء بعده من نماذج الفن الفرعوني الكلاسيكي. وهناك العديد من النماذج سواء في الرسومات أو أعمال النحت والحفر التي ظهرت خلال النصف الثاني للقرن ١٤ قبل الميلاد، تبين بوضوح طبيعة الفن الجديد. ومن النماذج المشهورة لفن العمارنة، القناع الذهبي للملك توت عنخ آمون الذي يعتبر واحداً من أهم الأعمال الفنية للعالم القديم.

"لا بد وأن تكون وجوه الفيوم قد وجدت جنباً إلى جنب مع الأيقونات المسيحية، إلى أن انقرضت المومياوات. فالأيقونات المحفوظة بدير سانت كاترين بسيناء، والتي تؤرخ بين القرنين السادس والسابع، تشبه الوجوه إلى حد كبير، ورغم وجود خلافات حول مصدرها الأصلي، لكنها مصرية بدون شك... ولا يمكن أن يكون هناك شك أن وجوه مثل تلك التي وجدت في الفيوم هي أسلاف الأيقونات."[1]

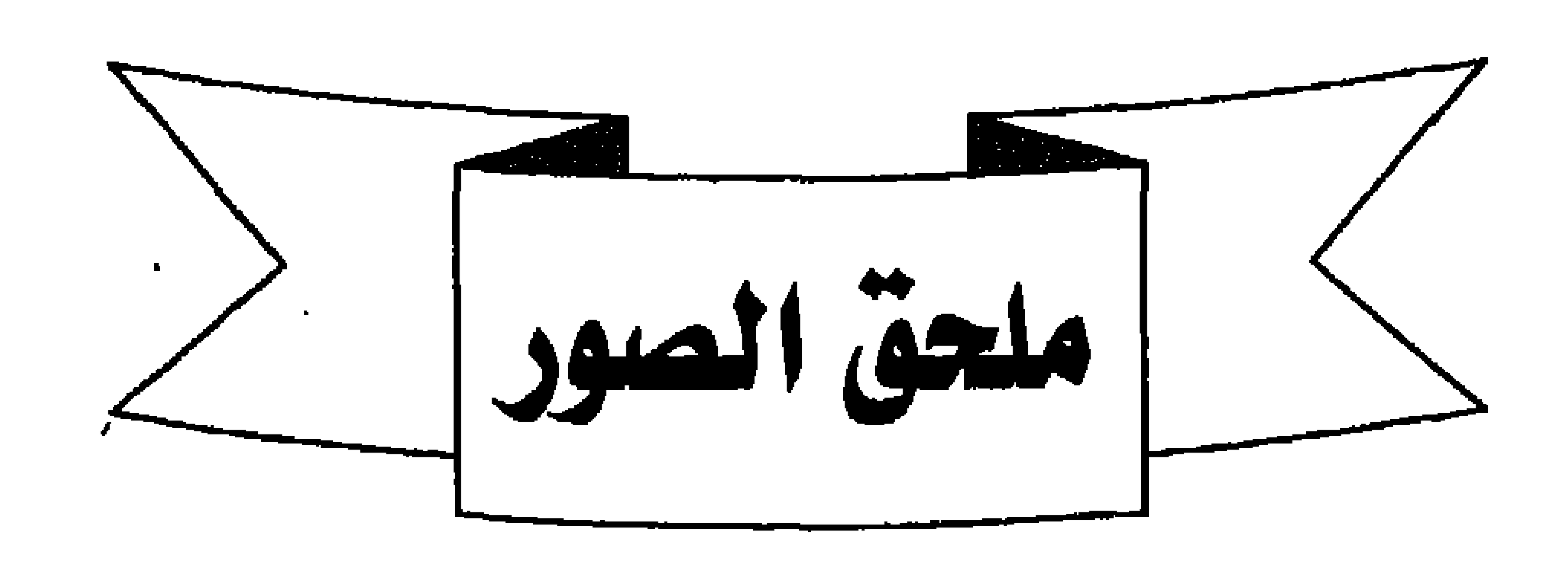
(1) The Mysterious Fayum Portraits, Euphrosyne Doxiadis, Thames and Hudson, London, 1995, p. 90.

استنتاج

عندما تمت كتابة التاريخ المصري منذ حوالي قرنين، لم يكن هذا التاريخ يحتوي على مكان لواحد من أهم العصور في بلادنا، وهو العصر القبطي. ربما كان سبب غياب هذا العصر من تاريخنا المكتوب، يرجع إلى اعتقاد الباحثين الخاطئ بأن المصريين لم يعتنقوا المسيحية قبل الحكم البيزنطي في القرن الرابع. وبينما يوافق الكثيرون منهم على أن القديس مرقص هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية، فهم ينظرون إلى هذه المدينة وكنيستها باعتبارها يونانية وليست مصرية.

الآن بعد مرور حوالي قرن ونصف القرن على بدء أعمال الكشف الأثري في بلادنا، أصبح من الضروري إعادة النظر في وجهة النظر هذه. وبينما تبين أن الإسكندرية التي وصل إليها مرقص كانت مدينة مصرية في حضارتها ومظهرها، فقد تم العثور على الآلاف من البقايا الأثرية في جميع أنحاء البلاد، تظهر بوضوح انتشار العقيدة المسيحية منذ القرن الثاني على الأقل. ومن المؤكد أن أقدم الكتابات المسيحية الموجودة الآن في جميع أنحاء العالم بما في ذلك العهد الجديد، وجدت في مصر، وليس في أي مكان آخر. وبما أننا نتحدث هنا عن التاريخ وليس عن الخلافات اللاهوتية، فمن المؤكد أن الجماعة المسيحية في مصر تكونت قبل أية جماعة مسيحية في أي بلد آخر. وبينما تبين البقايا الأثرية تنوع الجماعات المسيحية الأولى في مصر كما في بقية البلدان، فلم يتم تحديد قواعد ما يعتبر أورثوذكسياً قبل نهاية القرن الثاني.

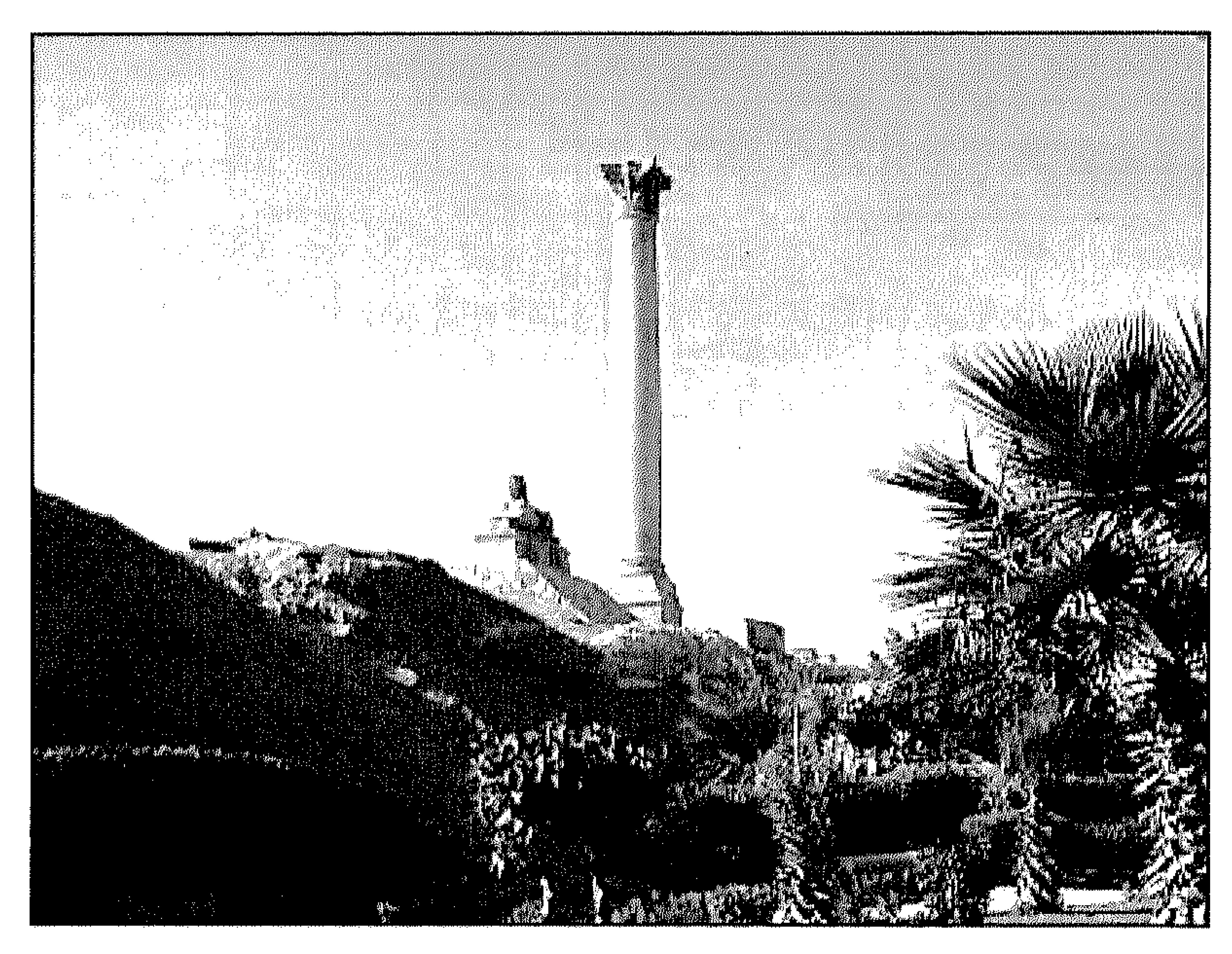
حان الوقت حتى يكون لنا دور في كتابة تاريخ بلادنا، كما حان الوقت لإعادة فحص الأدلة على ضوء نتائج الكشوفات الأثرية الحديثة. عندئذ يمكننا استعادة ذاكرتنا المفقودة، والعودة إلى جذورنا الحضارية التي تمتد لخمسة آلاف عام خلال ثلاثة عصور تاريخية مهمة، الفرعونية والقبطية والإسلامية.


ملحق الصور

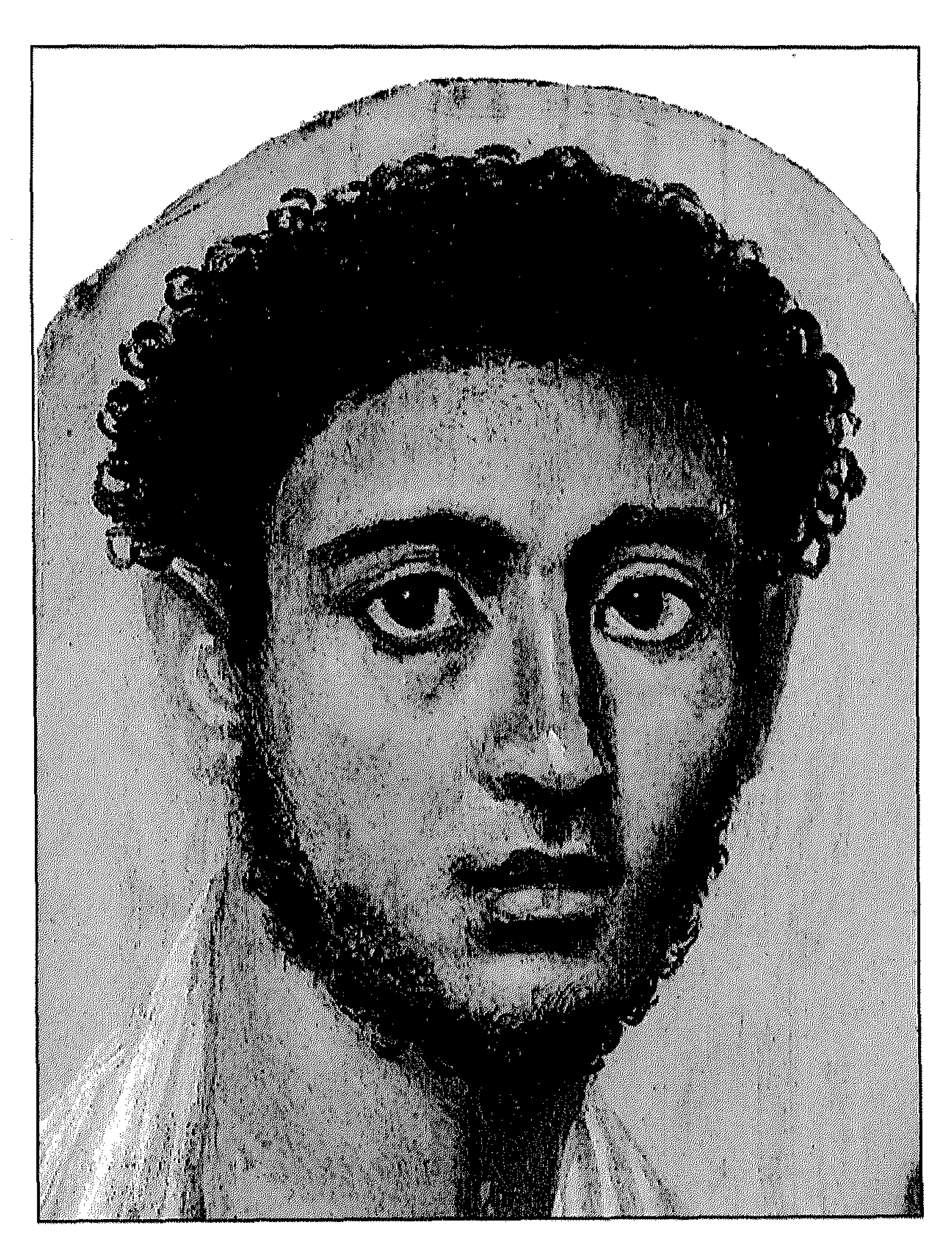


عمود السواري في الإسكندرية المعروف باسم عمود بومبي

أسفل هذه العمود تم الكشف عن بقايا معبد السرابيوم ومكتبة الإسكندرية القديمة.



صورة أخرى لعمود السواري



أحد بورتريهات الفيوم التي تمثل الفن القبطي



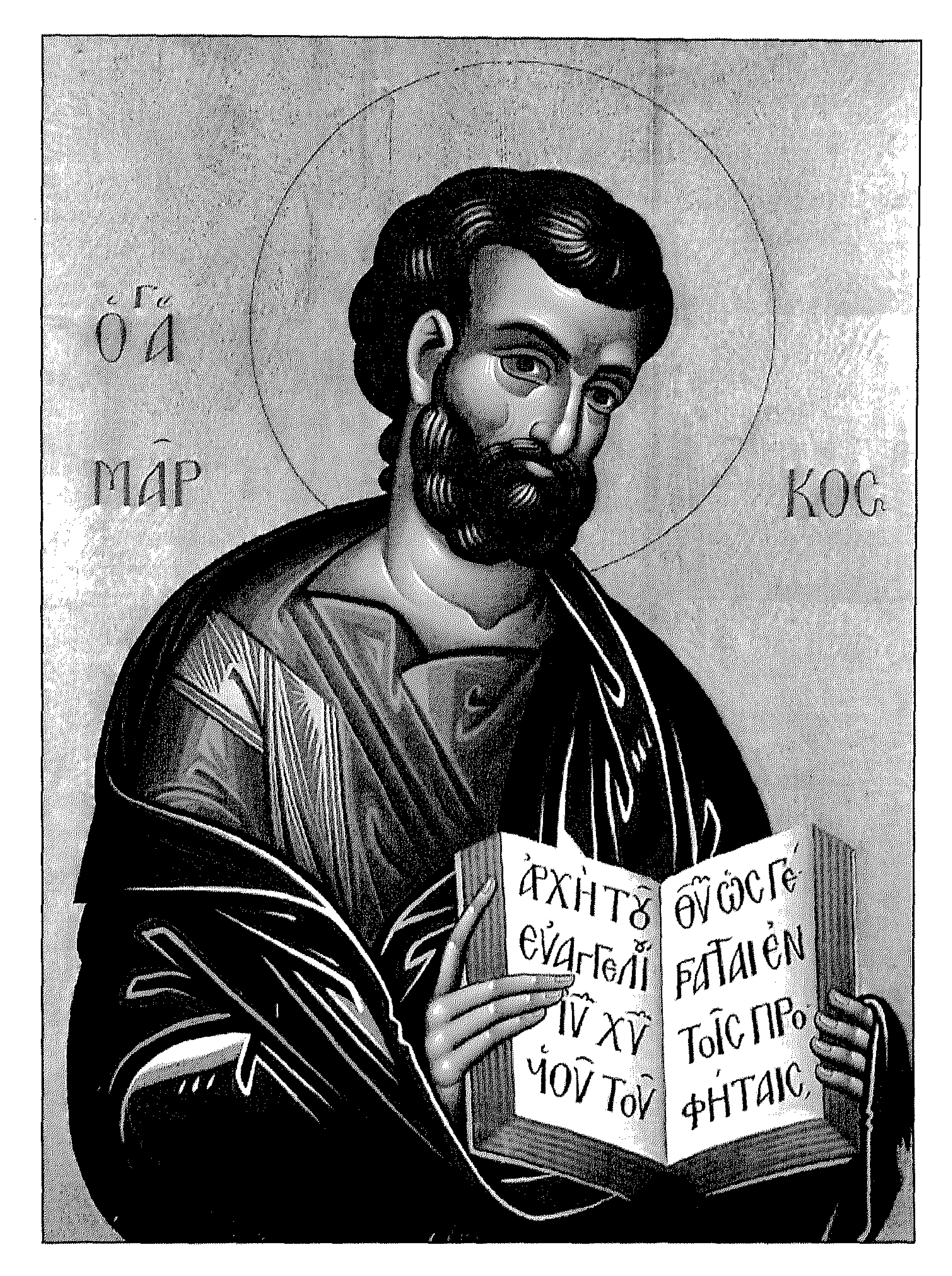
استخدم المسيحيون الأوائل معبد إيزيس في جزيرة فيلة جنوب أسوان لعبادتهم، فرسموا الصليب فوق الرسومات الفرعونية.



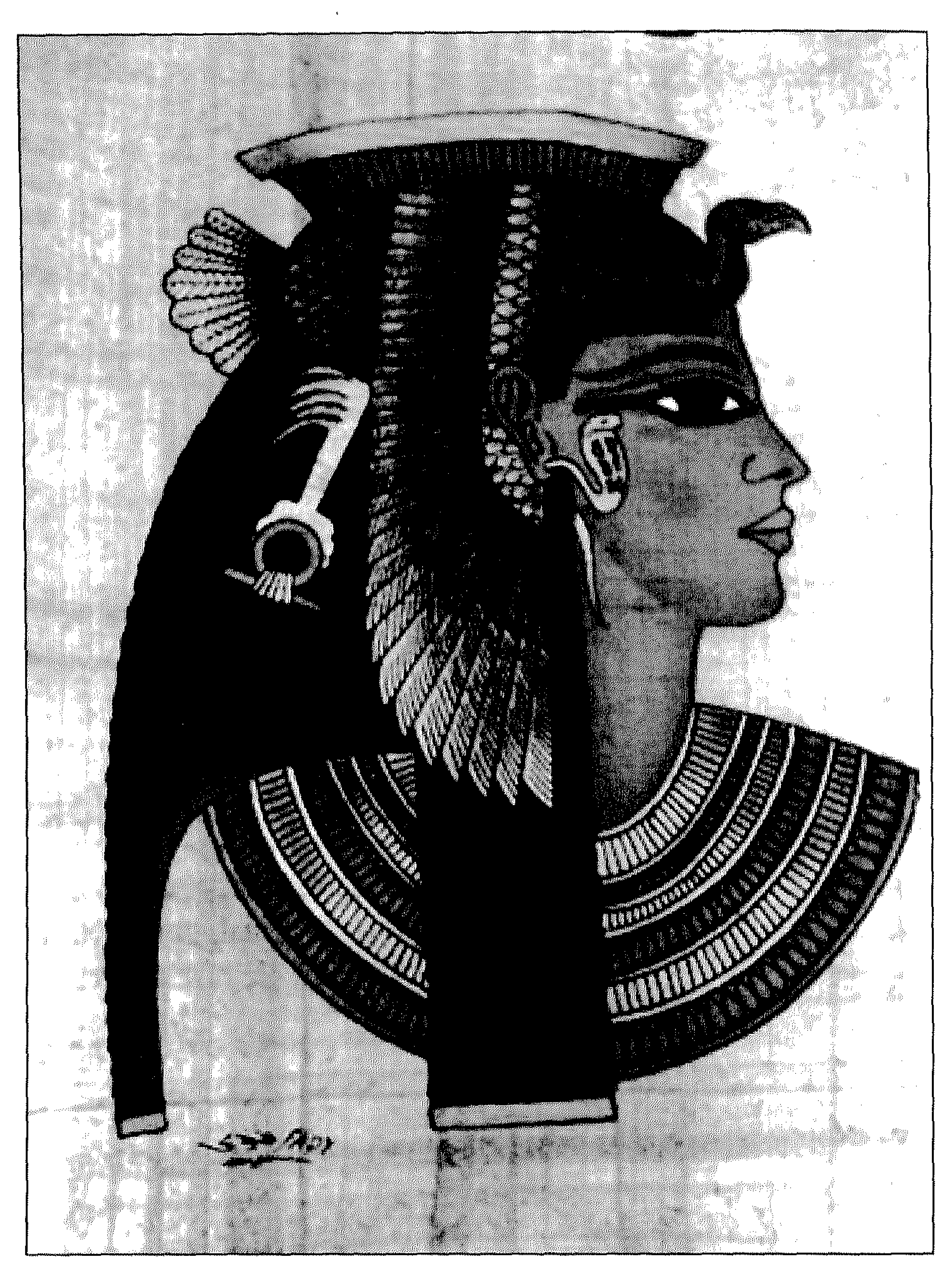
بطليموس الثالث عشر - والد كليوباترا رأس فرعون وجسد أسد. عثر عليه غارقاً في ميناء الإسكندرية.



أكتافيوس الذي هزم كليوباترا ومارك أنتوني واستولى على مصر. صار أول امبرطور في روما باسم أغسطس.



القديس مرقس صاحب أقدم الأناجيل والذي أقام أول كنيسة في العالم بالإسكندرية



كليوباترا آخر ملوك البطالمة وآخر الفراعنة الذين حكموا مصر حوالي ثلاثة آلاف عام

المصـــادر

- زكي شنودة، موسوعة تاريخ الأقباط، الجزء الأول، مطابع البلاغ، القاهرة، ١٩٦٨.

- Bauer ، Walter: Orthodox and Heresy in Earliest Christianity ، translated by a team from the Philadelphia Seminar of Christian Origins ، Edited by and Gehard Krodel ، Sigler Press ، Mifflintown ، PA ، USA ، 1970.
- Bell ، H. I.: Evidences of Christianity in Egypt During the Roman Period ، Harvard Theological Review ، 1944.
- Blum ، Rudolf: Kallimachos ، The Alexandrian Library and the Origins of Bibliography ، tr. From German by Hns H. Wellisch ، University of Wisconsin Press ، 1991.
- Boettner ، Loraine: Roman Catholicism ، The Banner of Truth ، London ، 1966.
- British Museum Publications: The Christian Orient ، British Library ، 1978.
- Brown ، S. Kent: The Roots of Egyptian Christianity ، S. Kent Brown ، Fortress Press ، Philadelphia ، 1986.
- Burnet ، John: Early Greek Philosophy ، A & C Black Ltd. ، London ، 1935.
- Chadwick ، Owen: A Study in Primitive Monasticism ، Cambridge at the University Press ، 1950.
- Darch ، S. M.: Tablet of Alexander IV Aegus in S. Birch (ed.) Records of the Past Series 1 ، Vol. X ، London ، 1878.
- Davis ، Stephen J.: The Early Coptic Papacy ، The American University in Cairo Press ، Cairo ، New York ، 2004.
- De Gruyter ، Walter: History and Literature of Early Christianity ، New York-Berlin ، 1982.
- De Vlieger ، A. and Bridel ، George: (Editors) The Coptic Church ، Lausanne ، 1900.
- Diodorus ، 18 ، 14.

–Doxiadis ،Euphrosyne: The Mysterious Fayum Portraits ،Thames and Hudson ، London ،1995.

–El Abbadi ،Mostafa: The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria ، UNESCO/UNPD ،France ،1990.

–Empereur ،Jean-Yves: Alexandria Rediscovered ،British Museum ،The Submerged Royal Quarters ،1998.

–Fraser ،P. M.: Ptolemaic Alexandria ،v. Oxford ،Clarendon Press ،1972 .

–Frend ،William H. C.: The Archaeology of Early Christianity ،London ،Geoffrey Chapman ،1996.

–Gibbon ،Edward: with notes by the Rev. H. H. Hilman ،The Decline and Fall of the Roman Empire ،London ،John Murray ،1846.

–Goddio ،Frank: Alexandria ،The Submerged Royal Quarters ،Periplus ،London ، 1998.

–Green ،Peter: Alexander to Actium ،University of California Press ،1990 .

–Ibn el-Muqaffa ،Severus: History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria ،Patrologia Orientalis ،1904.

–Immerzeel ،M. and Cn Der Vliet (Editors): An Historical Defenition for the Coptic Period ،Procceedings of the Seventh International Congress of Coptic Studies ، Leiden ،2000 ،Peeters ،2004 ،Los Angeles.

–Josephus ،Flavius: Antiquities of the Jews ،xii. 2.

–Judaeus ،Philo: Every Good Man is Free ،XII. 75.

–Koester ،Helmut: History and Literature of Early Christianity ،Walyer De Gruyter ، New York-Berlin ،1982.

–Loeb ،James: (Tranlator) Alexandrian Poetry ،London ،William Heinemann Ltd. ، 1931.

–Mahaffy ،J. P.: The Empire of the Ptolemies ،Adamant Media ،2001.

–Mellen ،Edwin: The Consecration of a Greek Orthodox Church ،Gus George Christo ، US ،2005.

–Marcellinus ،Ammianus: The Later Roman Empire ،22. 16 .

–N.P.S. Series II ،pl. 182.

–P. Oxy. IV ،656 ،I.

–Pearson ،Birger A.: Early Christianity in Egypt ،in The Roots of Egyptian Christianity ،Editors: Birger A. Pearson & James E. Goehring ،Fortress Press ، Philadelphia ،1986.

–Petrie ،W. M. Flinders: The Cross in Egypt ،Mrs. Butcher (Edith Louisa). The Cross in Italy ،Macmillan & Co. ،London and New York ،1916.

–Polybius ،History ،II.34.14.

Roberts ،Colin H.: Manuscripts ،Society and Belief in Early Christian Egypt ،The Schweich Lectures of the British Academy ،1977 ،London ،The Oxford University Press ،1979.

–Shaw ،Ian: (editor) ،The Oxford History of Ancient Egypt ،Oxford University Press ، 2000.

–Strabo: 1.1.12.

–Strabo: Geography ،17.I.8.

–Waddell ،W. G.: Manetho ،William Heinenaan Ltd. ،London ،1940.

–Watterson ،Barbra: Coptic Egypt ،Scottish Academic Press.

المحتويات

صفحات من تاريخ مصر

هذة السلسة تضم :



مكتبة مدبولى
MADBOULY BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب- القاهرة - ت : ٢٥٧٥٦٤٢١
Talat harb SQ. Tel:25756421
www.madboulybooks.com - info@madboulybooks.com